روايات مصرية للجيب

ملف المستقبل
سري جداً !!

د. نبيل فاروق

141

الثعابين

Looloo

www.helmelarab.net

المؤسسة العربية الحديثة

ملف المستقبل

فى مكان ما من أرض (مصر) ، وفى حقبة ما من حقب المستقبل ، توجد القيادة العليا للمخابرات العلمية المصرية ، يدور العمل فيها فى هدوء تام ، وسرّية مطلقة ؛ من أجل حماية التقدّم العلمى فى (مصر) ، ومن أجل الحفاظ على الأسرار العلمية ، التى هى المقياس الحقيقى لتقدّم الأمم .. ومن أجل هذه الأهداف ، يعمل رجل المخابرات العلمية (نور الدين محمود) ، على رأس فريق نادر ، تم اختياره فى عناية تامة ودقة بالغة ..

فريق من طراز خاص ، يواجه مخاطر حقبة جديدة ، ويتحدّى الغموض العلمى ، والألغاز المستقبلية ..

إنها نظرة أمل لجيل قادم ، ولمحة من عالم الغد ، وصفحة جديدة من الملف الخالد ..

ملف المستقبل .

د. نبيل فاروق

١ ـ الرعب ..

تطايرت سحب الرمال والغبار فى عنف ، حول ذلك المنجم القديم المهجور ، فى منطقة (جبل الطور) ، فى قلب (سيناء) ، مع هبوط تلك الحوّامة الكبيرة ، التى تحمل شعار إحدى شركات التعدين الكبرى ، وتوقّفها على قيد أمتار قليلة ، من فتحة المنجم الكبيرة ، ومن تلك اللافتة القديمة ، التى تعلن توقفه عن الإنتاج ، وتحذّر أى شخص من المخاطرة بدخوله ، دون إذن من السلطات والجهات المختصّة ..

ولعدة دقائق ، قبعت الحوّامة فى مكانها ، وسرعة مروحتها العلوية تنخفض تدريجيًّا ، لتستقر معها سحابة الرمال ، وأحد الرجال الثلاثة داخلها يقول لقائدها ، فى توتر ملحوظ :

ـ هل سيحدث هذا ، فى كل مرة نأتى فيها إلى هنا ؟!

ابتسم قائد الحوّامة ، وهو يقول :

ـ المنطقة مهجورة منذ أعوام طويلة أيها السادة ، وإذا ما قرَّرتم إعادة العمل فيها ، فسيتم تمهيدها بالطرق الحديثة حتمًا ، وسيكون هناك مهبط خاص لنا ، وستهدأ الأمور إلى حد كبير .

وصمت لحظة ، ثم أشار بسبَّابته ، مستدركًا فى سرعة :

ـ ولكن سيبقى حتمًا بعض الغبار والرمال ، فمهما بلغت براعة البشر ، لن يمكنهم قط السيطرة على الطبيعة تمامًا .

غمغم رجل آخر :

ـ هذا أمر طبيعى .

كان الغبار والرمال قد استقرا تمامًا ، وبدت الرؤية واضحة إلى حد كبير ، فتطلَّع الرجال الثلاثة إلى مدخل المنجم ، لبعض الوقت ، قبل أن يغمغم أحدهم :

ـ هل تعتقدان أنه من الممكن أن نعيد الحياة إلى هذا الشىء ؟!

قال آخر ، وهو يلتقط حقيبته ، ويدفع باب الحوّامة الجانبى :

ـ نحن هنا لنبحث هذا يا صديقى ..

غادر اثنان منهم الحوّامة ، فى حين بقى الثالث داخلها ؛ لتشغيل أجهزة الفحص الكبيرة ، والقائد يسأل :

ـ هل سيستغرق الأمر كثيرًا ؟!

هزَّ أحد الرجلين رأسه ، وهو يقول :

ـ سنحتاج إلى نصف ساعة فحسب يا رجل .

أومأ القائد برأسه متفهمًا ، وأشار بيده إشارة غير ذات معنى ، وهو يشعل سيجارته خارج الحوّامة ، قائلاً :

ـ لا بأس .. إنها ليست بالفترة الطويلة .

راح الرجلان ، يرتديان زيًّا خاصًا ، وخوذة لحماية الرأس ، من أية احتمالات لسقوط أحجار داخل المنجم القديم ، فى حين ضغط الثالث أزرار أجهزته فى سرعة ، قبل أن يقول :

ـ كل شىء على ما يرام .. يمكنكما البدء فورًا .

أشار الاثنان بأيديهما ، وهما يتجهان نحو المنجم القديم ، وتوقفا لحظة عند مدخله ، وهما يتبادلان حديثًا مقتضبًا ، حول حالة المدخل ، قبل أن يدلفا إلى المكان ، ويختفيا داخله ..

وعلى ضوء مصباحيهما ، بدا لهما المكان مرتبًا ، على عكس ما توقعاه ، بغضّ النظر عن أكوام الغبار الكثيفة ، وراح أحدهما يلتقط الصور بآلة تصوير الفيديو ، التى يعمل جهاز خاص مثبت بها ، على إرسالها فورًا إلى تلك الأجهزة الضخمة فى الحوّامة ، والتى تقوم بتحليل كل ما يصل إليها ، باستخدام النظم الرقمية ، ومقاييس الطيف المختلفة ..

وفى توتر محدود ، غمغم الثانى :

ـ لاشىء يوحى باستمرار وجود المواد الخام ، فى أى مكان هنا .

ابتسم حامل آلة التصوير ، وهو يغمغم :

ـ هذا أمر طبيعى يا صديقى ؛ فلو أنهم عثروا على

ذرة واحدة من المادة الخام ، على نحو ظاهر ، لما أوقفوا المنجم وهجروه .

سأله الثانى فى نفس التوتر :

ـ وهل تعتقد أننا سننجح ، فيما فشلوا فيه قديمًا .

أجابه حامل آلة التصوير :

ـ ولمَ لا ؟! كل شىء تقدَّم وتطوَّر ، خلال السنوات الخمس الأخيرة ،ولدينا الآن وسائل مختلفة ، لكشف وجود المادة الخام ، فى أعماق لم تتح لهم من قبل ، و ...

بتر عبارته بغتة ، واستدار فى حركة حادة ، جعلت الثانى يهتف به فى توتر بالغ هذه المرة :

ـ ماذا هناك ؟!

بدت الحيرة ممتزجة بالعصبية ، فى وجه حامل آلة التصوير وصوته ، وهو يقول :

ـ لست أدرى .. خُيِّل إلىَّ أن شخصًا ما ، أو شيئًا ما ، قد اندفع خلفنا بغتة .

تلفَّت الثانى حوله فى ذعر ، قائلاً :

ـ شىء ما ؟! ماذا تعنى بشىء ما ؟! إننى لم ألمح شيئًا !

ظلَّت الحيرة مرتسمة على وجه حامل الكاميرا بضع لحظات ، قبل أن يغمغم فى عصبية :

ـ لست أدرى ! ربما هى الظلال أو ....

لم يتّم عبارته ، ولكن الثانى لم يسأله عن بقيتها ، وإن ترك الأمر فى نفسيهما لمحة من الخوف المتوتر ، جعلت الثانى يسأل فى خفوت :

ـ أمن المحتّم أن تتوغّل كثيرًا ؟

هزّ حامل آلة التصوير كتفيه ، مغمغمًا :

ـ لماذا أتينا إذن ؟!

تمتم الثانى فى توتر :

ـ نعم .. لماذا أتينا ؟!

شىء ما فى أعماقه شعر بقلق عارم ، جعله يتلفَّت حوله فى خوف مبهم وهما يتوغلان داخل المنجم القديم ..

ويتوغلان ..

ويتوغلان ..

ثم فجأة ، توقَّف حامل آلة التصوير ، وهتف فى عصبية :

ـ ما هذا بالضبط ؟!

حدَّق زميله فى ذلك الأثر الضخم ، الممتدّ فوق طبقة الرمال والغبار ، إلى أعمق أعماق المنجم المهجور ، وغمغم فى ارتياع :

ـ نعم .. ما هذا ؟!

التقط الأوَّل جهاز الاتصال من حزامه ، وهتف عبره فى انفعال :

ـ هل سجَّلت هذا ؟!

أتاه صوت زميلهما الثالث ، الذى بقى داخل الحوّامة ، وهو يقول فى اهتمام :

ـ بالتأكيد .. إنه أثر لجسم كبير ، تم سحبه على الرمال ..

قال الأوّل فى توتر :

ـ ومنذ فترة قليلة .

غمغم الثانى ، فى صوت حمل كل الذعر :

ـ قليلة للغاية .

ظلّ الأوّل يحدّق فى الأثر بضع لحظات ، قبل أن يرفع آلة التصوير إلى الأمام ، عبر عمق المنجم ، وهو يقول بنفس الانفعال :

ـ ذلك الجسم تم سحبه إلى أعمق الأعماق .. التصوير بالأشعة دون الحمراء يرصد الأثر ، على أقصى مدى يمكنه بلوغه .

انبعث صوت الثالث ، وهو يقول ، عبر جهاز الاتصال :

ـ عجبًا ! الأثر متموّج فى انتظام مدهش ، كما لو أن ذلك الجسم كان يزحف فوق الرمال .

هتف الأوّل فى رعب :

ـ يزحف ؟!

نقل جهاز الاتصال هتافه المذعور ، إلى زميلهما الثالث ، الذى انعقد حاجباه بشدة ، وهو يتابع شاشات المراقبة ، التى تنقل الصور الطبيعية والتحليلية ، لكل ما تلتقطه آلة التصوير فى الداخل ، وقال فى توتر :

ـ أظن أنه من الأفضل أن تكتفيا بهذا القدر ، وتعودا إلى هنا فورًا .

اقترب منه قائد الحوّامة ، وهو يتساءل فى قلق :

ـ ماذا يحدث بالداخل ؟!

هزّ الثالث رأسه فى توتر ، مجيبًا :

ـ لست أدرى .

وصمت لحظة ، وهو يتابع الشاشات ، قبل أن يضيف فى حزم :

ـ ولكن الأفضل أن يعودا .

تابع قائد الحوَّامة معه المشهد على الشاشات ، وبدا من الواضح ، مع اهتزاز الصورة ، أن الرجلين بالداخل يتراجعان بلا نظام ، وبشىء من التوتر والذعر ، فغمغم الرجل :

ـ تُرى ماذا يحدث ؟!

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى نقل جهاز الاتصال صرخة حامل آلة التصوير :

ـ رباه ! ما هذا ؟!

ثم انطلقت صرخة رعب هائلة من الآخر ، اتصلت بصرخات متقطعة ، تجمع بين الألم والذعر ، وراحت الصورة تهتزّ فى عنف ، وتوحى بأنِ حامل آلة التصوير يعدو بأقصى سرعته ، محاولاً العودة إلى مدخل المنجم ، وهو يصرخ :

ـ لا .. لا .. هذا مستحيل ! مستحيل !

امتقع وجه زميلهما الثالث ، وهو يصرخ بدوره :

رباه ! ماذا يحدث ؟! ماذا يحدث ؟!

نقل جهاز الاتصال صرخات الرعب الهائلة، التى يطلقها حامل آلة التصوير ، والتى امتزجت بصوت فحيح هائل ، جعل قائد الحوَّامة ينتزع مسدسه ، وهو يهتف :

ـ رباه ! أى شىء يواجههما بالداخل ؟!

كان المشهد عنيف الاهتزاز على الشاشة ، يوضّح أن آلة التصوير قد سقطت أرضًا ، وتدحرجت بعيدًا ، وراحت تنقل قدمى حاملها السابق ، وهو يعدو ، ويصرخ فى رعب هائل ، و ....

وفجأة ، عبر شىء ما أمام آلة التصوير ..

شىء حجب الرؤية تمامًا ، وهو يزحف أمام العدسة ..

واتسعت عينا الثالث ، بكل رعب الدنيا ، وهو

يتراجع فى عنف كالمصعوق ، فى حين شهق قائد الحوّامة ، هاتفًا :

ـ يا إلهى ! يا إلهى !

ثم اندفع ، فى بسالة يحسد عليها ، نحو مدخل المنجم ..

وعلى الشاشة ، انطلقت الصورة دفعة واحدة ، فى حين نقل جهاز الاتصال صرخات الأوّل ، التى امتزج ألمها برعبها ، ثم راحت تختنق ، ورنة الألم تتضاعف فيها ، وتغلب موجة الرعب ..

ثم انبعث صوت قائد الحوّامة ، وهو يصرخ فى ذهول :

ـ رباه ! أى عبث شيطانى هذا ؟!

وامتزجت صرختـه بدوى رصاصات المسدس التقليدى ، الذى اقتحم به المنجم ..

ثم انطلقت منه صرخة أخرى ، تجمّدت لها الدماء ،

فى عروق الثالث ، الذى اندفع بكيانه المرتجف ، يضغط زر جهاز الاتصال العام ، ويصرخ عبره :

ـ النجدة .. النجدة .. نريد مساعدة عاجلة ، بأقصى سرعة ممكنة .. النجدة .. النجدة ..

أتاه صوت من المركز الرئيسى لشركة التعدين ، يهتف فى انزعاج :

ـ ماذا هناك ؟! عرف نفسك وموقعك .

صاح الثالث ، وعيناه المتسعتان تحدقان فى مدخل المنجم :

ـ نحن الفرقة الاستكشافية (ت ـ ١٧) .. أسرعوا بالله عليكم .. إننا ....

بتر عبارته دفعة واحدة ، وتضاعف اتساع عينيه ، بكل رعب الدنيا ، وهو يحدّق فى قائد الحوّامة ، الذى خرج بوجه أسود مخيف ، وعينين جاحظتين مذعورتين ، وهو يجر قدميه جرًا ، قبل أن يسقط على وجهه كالحجر ..

وفى اللحظة نفسها ، هتف مسئول المركز الرئيسى للشركة ، عبر جهاز الاتصال العام :

ـ ماذا يحدث عندكم يا (ت ـ ١٧) ؟! أخبرنا بالله عليك .

ولكن الرجل لم يكن بوسعه أن ينطق بحرف واحد ..

لقد جحظت عيناه عن آخرهما ، وانتفضت كل ذرة من كيانه ، وهو يحدق فى ذلك الشىء ، الذى خرج من فتحة المنجم ، والذى اتجه نحوه مباشرة ..

وبكل رعب الدنيا ، ومن كل ذرة فى جسده ، وكل نفس فى صدره ، أطلق الرجل من أعمق أعماقه صرخة ..

صرخة هائلة مدوية ، حملت كل رعب وألم الدنيا ..

صرخة كانت آخر ما تجاوز حلقه ..

على الإطلاق ..

* * *

« مازلنا لم نعثر على أدنى أثر للسيد (أكرم) .. » ..

انعقد حاجبا (نور) فى شدة ، عندما نطق قائد الأمن العام العبارة ، وأشار بيده قائلاً فى توتر :

ـ عجبًا ! ما الذى يمكن أن يعنيه هذا ؟!

واستدار يتطلع إلى خريطة بحث كبيرة ، مثبتة بالجدار ، قبل أن يتابع ، فى حيرة متوترة :

ـ التحريات كلها تؤكد أنه غادر منزله ، فى طريقه لحضور حفل صغير فى منزلى ، ولكنه اختفى فجأة ، فى المسافة بين المنزلين ، ودون أن يترك خلفه أدنى أثر ، فكيف يمكن أن يحدث هذا ؟! كيف ؟!

تردد قائد الأمن العام لحظة قبل أن يقول :

ـ إننا ندرس الآن احتمالى الاختطاف والاغتيال .

هز (نور) رأسه ، مغمغمًا فى مرارة :

ـ لقد درسناهما بالفعل ، ولكن لاشىء يشير إليهما ، على نحو واضح أو مؤكد ، فالمختطف ، أيًا كانت

هويته ، ستكون له مطالب ما ، لابد أن يعلنها ، أو لا تكون هناك فائدة لما يفعله .

قال قائد الأمن العام :

ـ هناك أسباب أخرى للاختطاف ، بخلاف طلب الفدية .

ثم انعقد حاجباه ، وهو يضيف فى حزم :

ـ كانتزاع المعلومات مثلاً .

هزّ (نور) رأسه مرة أخرى ، قائلاً :

ـ لقد استبعدنا هذا الاحتمال أيضًا .

ازداد انعقاد حاجبى قائد الأمن العام ، وهو يقول فى صرامة :

ـ على الرغم من كون السيّد (أكرم) رجل مخابرات ؟!

أومأ (نور) برأسه إيجابًا ، وقال فى أسى :

ـ صحيح أن (أكرم) أحد أفراد فريقنا ، فى المخابرات العلمية ، إلا أنه ليس أحد المسئولين الفنيين ، أو حتى يحمل رتبة كبيرة ، وهذا يعنى أن مايمكن انتزاعه منه

من معلومات محدود للغاية ، ولو أن هناك جهة تسعى للحصول على المعلومات ، لاختارتنى ، أو لاختارت زوجتى أو ابنتى .. ولكن ليس (أكرم) .

أومأ قائد الأمن العام برأسه متفهمًا ، ثم تساءل فى اهتمام :

ـ وماذا عن احتمال الاغتيال ؟!

أدار (نور) عينيه إليه ، قائلاً :

ـ وكيف يمكن تنفيذ عملية اغتيال ، دون ترك أدنى أثر للضحية ؟!

أجابه الرجل فى سرعة :

ـ باختطافه ، وقتله فى مكان بعيد .

تنهّد (نور) ، قائلاً :

ـ حتى هذا الاحتمال ، الذى ليس له ما يبرّره عمليًا ، لايمكنه أن يزيل غموض الموقف ، بسبب نقطة مهمة ، لم ننجح فى تفسيرها بعد .

سأله فى اهتمام :

ـ وما هو ؟!

أشار (نور) بسبّابته ، وهو يجيب فى حزم :

ـ حزام الأمان .

أطلّ التساؤل من عينى قائد الأمن ، وهمّ (نور) بشرح مايعنيه ، عندما ارتفع أزيز ساعة الاتصال الخاصة فى معصمه فجأة ، فانعقد حاجباه فى شدة ، وأشار بيده فى صرامة ، قائلاً :

ـ إنه استدعاء من الإدارة .

وتألّقت عيناه ، وهو يضيف فى حزم :

ـ استدعاء عاجل .. جدًا .

وكان هذا يعنى أن التفسير سينتظر .. كثيرًا ..

* * *

انعقد حاجبا (نور) فى شدة ، وهو يستمع إلى التسجيل الصوتى ، الذى تم إرساله ، من قبل شركة التعدين ، إلى المخابرات العلمية المصرية ، قبل أن يتساءل ، فى حيرة متوترة :

ـ وهل أرسلوا إليهم نجدة عاجلة بالفعل ؟!

أومأ الدكتور (جلال) رئيس مركز الأبحاث ، التابع للمخابرات العلمية برأسه ، وهو يقول :

ـ نعم .. أرسلوها على الفور ، مع فريق مسلّح للطوارئ ، و ...

بتر عبارته ، وبدا عليه وكأنه يبحث عن الكلمات المناسبة ، فتساءل (نور) فى حذر :

ـ وما الذى عثروا عليه ؟!

لوح الدكتور (جلال) بذراعيه ، وبدا حائرًا متوترًا ، على نحو دفع القائد الأعلى إلى أن يجيب بدلاً منه :

ـ كل ما عثروا عليه هو الحوَّامة محطَّمة ، على نحو يوحى بأنها قد تعرَّضت إلى قوة هائلة ، أو إلى ضربة مباشرة ، بقبضة عملاق رهيب ، وعند مدخل المنجم المهجور ، كانت جثة قائدها ملقاة ، ووجهها مسودّ على نحو مخيف ، أما الجيولوجيون الثلاثة ، فلم يُعثر لهم على أدنى أثر ، وكأنما انشقَّت الأرض وابتلعتهم .

تساءل (نور) فى اهتمام :

ـ ألم تكن هناك أية تسجيلات أخرى ؟!

هزَّ الدكتور (جلال) رأسه ، قائلاً :

ـ المفترض أنهم كانوا يقومون بتسجيل ما يوجد داخل المنجم القديم ، بالصوت والصورة ، وبثلاثة مقاييس طيفية مختلفة ، ولكن كل هذا لم يتم العثور عليه .. حتى الأجهزة نفسها اختفت تمامًا ، ولم تترك خلفها حتى حطامًا .

عاد حاجبا (نور) ينعقدان ، وهو يغمغم :

ـ هذه دلالة خطيرة للغاية .

وافقه القائد الأعلى بإيماءة من رأسه ، وقال فى حزم :

ـ بالتأكيد يا (نور) ، فوجود أجهزة محطمة ، مع بعض الجثث ، كان سيوحى بأن الحوَّامة وركابها قد تعرَّضوا لحادث ما ، ولكن اختفاء البشر والأجهزة ، يوحى بأمر أكثر خطورة .

اندفع (نور) يقول :

ـ محاولة تخريبية .

هتف الدكتور (جلال) :

ـ بالضبط .. هذا أوَّل ما خطر ببال خبرائنا .

ثم تراجع صوته بغتة ، وهو يستدرك :

ـ لولا ما عثرت عليه فرقة النجدة .

انتبه (نور) للعبارة ، وتساءل فى اهتمام :

ـ وما الذى عثرت عليه فرقة النجدة ؟!

ضغط الدكتور (جلال) زرًا على مكتب القائد الأعلى، فأظلمت الحجرة تدريجيًا، فى نفس الوقت الذى انزاح فيه جزء من الجدار المواجه للقائد الأعلى، لتبرز من خلفه شاشة عرض ضخمة، والدكتور (جلال) يقول فى انفعال:

- هذا.

سرت قشعريرة باردة فى جسد (نور)، وهو يتطلَّع إلى ذلك الفيلم، الذى التقطته فرقة النجدة للمنجم من الداخل..

الجدران والسقف كانت كلها عادية، لايمكن أن تثير الاهتمام أو الانتباه..

ولكن الأرضية كانت تختلف تمامًا..

ففى وضوح تام، ظهرت آثار تلك الأجسام الضخمة الزاحفة..

آثار ممتزج ببعضها البعض، على نحو يوحى بأن عدد تلك الأجسام يقدَّر بالعشرات..

وفى توتر، تمتم (نور):

- ما هذا بالضبط ؟!

أجابه الدكتور (جلال) فى سرعة، وعلى نحو يوحى بأنه كان يتوقَّع السؤال وينتظره:

- آثار ثعابين.

التفت إليه (نور) بحركة حادة، هاتفًا باستنكار:

- ثعابين ؟! بهذه الضخامة ؟!

تراجع القائد الأعلى فى مقعده بتوتر بالغ، وهو يشبك أصابع كفيه أمام وجهه، فى حين أومأ الدكتور (جلال) برأسه إيجابًا، وقال:

- نعم أيها المقدَّم.. ثعابين بهذه الضخامة.. لقد تطلَّب الأمر الحصول على ثلاثة تقارير مختلفة، لثلاثة من أكبر وأشهر علماء الزواحف؛ لتأكيد هذه المعلومة، ثم استعنا بعدها بعالم متخصِّص فى أنواع الثعابين، لحسم الأمر تمامًا..

وتوقّف لحظة ، مع فرط انفعاله ، ليلتقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يتابع ، فى صوت أقرب إلى اللهاث :

- إنها ثعابين .. وهائلة الحجم أيضًا .

مرة أخرى ، التقى حاجبا (نور) فى شدة ، وكأنما يعجز عقله عن استيعاب هذه المعلومة ، فقال القائد الأعلى فى صرامة :

- ليس هذا هو التأكيد الوحيد أيها المقدّم .

التقط الدكتور (جلال) طرف الخيط ، ليقول فى انفعال :

- جثة قائد الحوّامة تم تشريحها ، وإجراء الفحوص والتحاليل ، لكل جزء فيها ، ثم جاءت النتائج كلها ، لتؤكد أنه قد لقى حتفه بجرعة هائلة من سم الثعابين .. جرعة يحتاج استخراجها إلى مائة ثعبان ضخم على الأقل .

تساءل (نور) فى حذر :

- وماذا عن أثر أنياب الثعابين ؟!

هزّ الدكتور (جلال) رأسه نفيًا ، وقال :

- لم يكن هناك أى أثر لها .

ارتفع حاجبا (نور) ، فى دهشة متسائلة ، فتابع الدكتور (جلال) فى سرعة :

- ولكن الخبراء يؤكدون أنه هناك أنواع من الثعابين ، تنفث السم فى وجوه ضحاياها ، بدلاً من غرس أنيابها فيهم(*) ، والسم الذى قتل قائد الحوّامة من هذا النوع .

حاول (نور) هضم هذه المعلومات المخيفة ، وهو يتمتم :

- رباه ! كيف يمكن أن يحدث هذا ؟!

أشار القائد الأعلى بيده ، قائلاً فى حزم :

- هذا ما نطرحه على أنفسنا أيها المقدّم .

(*) حقيقة .

أدار (نور) عينيه إليه ، قائلاً :

ـ من الواضح أن الأمر يحتاج إلى تحقيق واسع يا سيِّدى .

مال القائد الأعلى إلى الأمام ، قائلاً :

ـ بل يحتاج إلى فريق أيها المقدَّم .. فريق علمى ، من طراز خاص جدًّا .

شدَّ (نور) قامته ، قائلاً فى حزم :

ـ كلنا رهن إشارتك يا سيِّدى .

وكان هذا إيذانًا ببدء العملية الجديدة ..

عملية الثعابين ..

الرهيبة .

* * *

٢ ـ عبر التاريخ ..

فجأة ، ودون مقدمات أو تمهيد ، استعاد (أكرم) وعيه ..

أو بمعنى أكثر دقة : استعاد شعوره بذاته ..

ولفترة ما ، لم يستطع تحديد موقفه بالضبط ..

آخر ما يذكره ، هو أنه كان يقود سيارته ، فى طريقه إلى منزل (نور) ، لحضور ذلك الحفل الصغير هناك ..

ثم فجأة ، شعر وكأن قنبلة قد أصابت كيانه ..

بل صاعقة ، سحقت كل ذرة فى جسده بضربة واحدة ..

ثم تفجَّر فى عقله ، أو فى ذاته كلها ، فيض من أفكار ومعلومات عجيبة مخيفة ، و ....

وفقد وعيه ..

أو فلنقل إنه قد شعر بمخه يذوب ، وسط نيران رهيبة ، ثم ينفجر عبر ممر مظلم طويل ..

طويل ..

بلا نهاية ..

وها هوذا يخرج منه بغتة ..

ومازال يجهل ما أصابه !!

يجهل أين هو !!

بل وكيف هو !!

إنه مازال يمتلك جسدًا ، ولكن كل ما حوله يوحى بأنه ضائع فى فراغ رهيب ، فى نفس الوقت الذى ينطلق فيه جسده بسرعة خرافية ..

ينطلق فى أى اتجاه ..

وكل اتجاه ..

لقد فقد تمامًا إحساسه بالزمان والمكان والاتجاه !

وهو لا يدرى كيف يمكن أن يحدث هذا ؟!

حتى فى مناطق انعدام الوزن ، فى الفضاء الخارجى ، لا يفقد المرء تمامًا إحساسه بالزمان والمكان[*] ..

أين هو إذن ؟!

أين ؟!

راح وعيه يعود تدريجيًا ، فى نفس الوقت الذى واصل فيه جسده الانطلاق ، على ذلك النحو العجيب ..

وبدأ يدرك ، لماذا اختلّ إحساسه بالزمان والمكان ..

فحيث ينطلق جسده ، كانت الشمس تشرق وتغيب ..

ولكن بسرعة مذهلة ..

وتعاقب مخيف ..

ثم إن المشاهد التى كانت تظهر أمام عينيه ، كل لحظة وأخرى ، كانت سريعة ، وعجيبة ..

إلى أقصى حد ..

(*) حقيقة .

كانت مشاهد من كل الأزمان ..

وكل العصور ..

حرب رومانية ..

معركة جوية ، من معارك الحرب العالمية الثانية ..

حوّامات مستقبلية ..

ديناصورات ..

مشاهد شتى ، تظهر وتختفى ، على نحو جعله يدرك أين ينطلق جسده ..

كان ينطلق عبر العصور ..

وعبر التاريخ ..

وبقدر ما أفزعته وروّعته الفكرة ، راح عقله يتساءل : لماذا حدث هذا ؟!

وكيف ؟!

وعلى نحو مباغت ، ودون تمهيد أو مقدمات أيضًا ، قفز الجواب إلى عقله ..

إلى أعمق أعماق تلافيف مخه ..

أو أنه قد انبعث منها ..

وهنا ، هنا فقط ، اتسعت عيناه عن آخرهما ، وشعر وكأن كيانه قد انقسم إلى نصفين ..

أو إلى شخصيتين منفصلتين ..

ولكن ما أثار ذعره حتى النخاع ، هو أن الشخصيتين كانتا له هو نفسه ..

(أكرم) .. و(أكرم) ..

واتسعت عيناه أكثر وأكثر ، وجسده يواصل الانطلاق ، بتلك السرعة الخرافية الهائلة ، عبر الزمن ..

أو عبر التاريخ ..

كله ..

* * *

وشعر كأن كيانه قد انقسم إلى نصفين .. أو إلى شخصيتين منفصلتين ..

فركت (مشيرة) كفيها فى عصبية بالغة ، وقاومت دموعها الحبيسة فى مقلتيها ، بكل ما تبقى فى كيانها من قوة وإرادة ، وهى تقول :

- أيعنى هذا أننا لن نستعيد (أكرم) أبدًا ؟!

هتفت بها (نشوى) ، فى توتر بالغ :

- لا تقولى هذا .. أرجوك .

لوَّحت (مشيرة) بذراعيها ، وعجزت أخيرًا عن سجن دموعها ، فتفجَّرت غزيرة وهى تهتف :

- ولكن هذا ما يعنيه ما حدث ، حتى هذه اللحظة .. (مصر) كلها تبحث عنه ، دون أدنى أثر ، أو أدنى أمل .

غمغمت (سلوى) فى أسى :

- إننا نبذل قصارى جهدنا يا (مشيرة) .

هتفت (مشيرة) فى مرارة :

- وعلى الرغم من هذا ، فالمحصِّلة صفر ، حتى هذه اللحظة .

وأغرقت دموعها وجهها ، وهى تلقى نفسها على أقرب مقعد إليها ، متابعة بكل حزن ومرارة الدنيا :

ـ إنكم أقوى فريق مخابرات علمية ، فى (مصر) كلها .. بل فى العالم أجمع ، وعلى الرغم من هذا ، فأنتم تجهلون ما أصاب زوجى ، وهذا يعنى أنه لم يعد هناك أمل فى استعادته .

قال (رمزى) فى حزم :

ـ لاينبغى أن نفقد الأمل فى اللّه (سبحانه وتعالى) أبدًا يا سيِّدة (مشيرة) .

انتحبت (مشيرة) لحظة ، قبل أن تغمغم :

ـ ونعم باللّه .

تبادلت (نشوى) نظرة صامتة متوترة مع أمها ، قبل أن تقول فى تردُّد :

ـ الدلالة الإيجابية الوحيدة هى أننا قد استبعدنا احتمالات الاختطاف والاغتيال ، والانتقاميات ، و ...

بترت عبارتها فى تردُّد أكثر ، فرفعت (مشيرة) إليها عينيها ، المغرورقتين بالدموع ، وهى تسألها فى حدة :

ـ وماذا ؟!

أزعجها تردُّد (نشوى) للمرة الثالثة ، فهبَّت من مقعدها ، صائحة فى حدة :

ـ وماذا يا (نشوى) ؟! وماذا ؟!

عضت (نشوى) شفتها السفلى، وكأنها تلوم نفسها على ما نطقت به ، مما أثار (مشيرة) أكثر ، فصاحت فى غضب :

ـ ما الذى تخفونه عنى بالضبط ؟!

أشاحت (نشوى) بوجهها فى توتر ، وانعقد حاجبا (سلوى) ، فى حين مطَّ (رمزى) شفتيه ، على نحو احتقن له وجه (مشيرة) وجعلها تهمّ بالانفجار فى وجوههم ، لولا أن انبعث من خلفها صوت (نور) ، حاسمًا حازمًا ، وهو يقول :

ـ سأخبرك أنا يا (مشيرة) .

رفع الجميع عيونهم إلى (نور) الذى استدارت إليه (مشيرة) ، بمنتهى التوتر والحدة ، فتابع بنفس الحزم :

ـ إنه زوجك ، ومن حقك معرفة الحقيقة كاملة .

ارتجف صوتها ، مع كيانها كله ، وهى تسأله :

ـ ماذا أصاب (أكرم) يا (نور) ؟!

أجابها فى هدوء حازم ، وهو يتجه إليها فى بطء :

ـ إننا لم نتوصل بالضبط إلى ما أصاب زوجك يا (مشيرة) ، ولكن هناك أمر غامض ، يحيط باختفائه .

ردّدت مرتجفة :

ـ أمر غامض ؟! أى أمر غامض ؟!

أشار بسبّابته ، قائلاً :

ـ (أكرم) اختفى من داخل سيارته ، وترك خلفه حزام أمان مقعده مربوطًا .

تراجع رأسها بحركة حادة ، وكأنما فاجأها القول ، أو أصابها فى عنف ، وهتفت :

ـ ما الذى يعنيه هذا ؟!

أجابها فى سرعة :

ـ أحزمة الأمان الحديثة محكمة وقوية ؛ لتحمى ركاب السيارة من الإصابة ، إذا ما ارتطمت السيارة بشىء ما ، وهى تسير بالسرعات الضخمة الحالية ، ولا أحد يمكنه الخروج من السيارة ، وتركها خلفه مربوطة .

قالت فى عصبية :

ـ مازلت أسأل : ما الذى يعنيه هذا ؟!

صمت لحظة ، تنهّد خلالها فى عمق ، قبل أن يجيب :

ـ الشىء الوحيد ، الذى يمكن أن يعنيه ، هو أن (أكرم) لم يغادر سيارته أبدًا .

تراجع رأسها بنفس الحركة الحادة ، واتسعت عيناها عن آخرهما ، فأكملت (نشوى) فى توتر :

ـ لقد اختفى وهو داخلها .

صرخت (مشيرة) بكل انفعالها :

ـ كيف ؟!

أجابتها (سلوى) هذه المرة فى حزم :

ـ هذا ما نواصل البحث عنه ، بكل ذرة فى كياننا يا (مشيرة) .

تردَّد (نور) لحظة ، ثم قال فى صرامة :

ـ ولكننا سنضطر للتوقُّف مؤقتًا .

هتفت (مشيرة) بانزعاج مذعور مستنكر :

ـ التوقُّف ؟! هل تقول التوقُّف ؟!

شدّ (نور) قامته ، قائلاً :

ـ إنه نداء الواجب .

صرخت :

ـ الواجب ؟! أى واجب ياسيادة المقدَّم ؟! ألا تعتبر السعى لاستعادة زميلك واجبًا مقدّسًا ؟!

أجابها فى حزم صارم :

ـ هناك واجب أكثر قداسة يا (مشيرة) .. واجبنا تجاه الوطن .. تجاه (مصر) .

صاحت فى غضب :

ـ وهل من المحتَّم أن تتخلَّى عن زميلك وصديقك ، لتلبى واجبك تجاه (مصر) ؟!

تنهَّد مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ (مشيرة) .. عندما التحقنا بالمخابرات العلمية ، أقسمنا على أن نضع أمن وسلامة الوطن فوق كل اعتبار .. كلنا أقسمنا بهذا ، حتى (أكرم) نفسه ، ولو أنه فى موضعى ، لما تردَّد فى بذل حياته نفسها ، لو اقتضى الأمر ، فى سبيل واجبه .

غمغم (رمزى) :

ـ هذا صحيح .

نقلت (مشيرة) بصِرها بينهما فى غضب ، ثم انتفض جسدها كله ، وهى تقول فى ثورة :

- كان ينبغى أن أتوقَّع هذا .. كان ينبغى أن أتوقَّعه .

قالتها ، ثم اندفعت تغادر المكان ، فى غضب عارم ، فران الصمت بعدها ، على نحو ثقيل مهيب ، قبل أن تقطعه (نشوى) ، متمتمة :

- هل سنضطر فعلاً لإيقاف البحث عما أصاب (أكرم) ؟!

صمت (نور) بضع لحظات ؛ ليتغلَّب على تلك الغصّة فى حلقه ، قبل أن يجيب فى صوت متحشرج :

- لدينا مهمة جديدة .

تساءلت (سلوى) فى توتر :

- أية مهمة ؟!

وهنا تغلَّب (نور) على مشاعره وانفعاله ، وهو يقول فى حزم :

- مهمة مخيفة .. جدًا .

وراح يشرح لهم القضية كلها ..

قضية الثعابين ..

* * *

تطايرت سحب الرمال مرة أخرى ، فى منطقة المنجم القديم المهجور ، فى (جبل الطور) ، مع هبوط حوّامة فريق (نور) ، التى استقرَّت على مسافة عشرين مترًا من مدخل المنجم ، وقائدها يتساءل فى اهتمام :

- هل يبدو لكم هذا المكان مناسبًا ، لمعسكركم العلمى ؟!

أجابته (سلوى) فى حزم :

- ليس لدينا خيار آخر .. الكمبيوتر هو الذى اختار المكان ، بعد دراسة كل المعطيات المطلوبة .

ابتسم (رمزى) ابتسامة باهتة ، وهو يتمتم فى خفوت :

ـ لو أن (أكرم) معنا الآن ، لاستنكر بشدة أن يقودنا جهاز كمبيوتر ، إلى حيث نقيم معسكرنا العلمى .

انعقد حاجبا (نور) دون أن يعلِّق على قول (رمزى) ، فى حين غمغمت (نشوى) ، فى حزن شارد :

ـ بالتأكيد .

التقط (نور) نفسًا عميقًا ، وشدّ قامته ، وهو يغادر الحوّامة ، قائلاً فى حزم صارم :

ـ الأفضل أن نبدأ على الفور ، وأن نركِّز تفكيرنا على عملنا فقط ، فأمامنا هنا الكثير لنفعله .

غادر الباقون الحوّامة بدورهم ، وتعاونوا على إقامة خيمة مكيَّفة الهواء ، لاتخاذها مقراً مؤقتًا للفريق ، وحولها أماكن الإقامة والمعيشة ، ثم نقلوا أجهزتهم إليها ، قبل أن يعتدل قائد الحوّامة ، قائلاً :

ـ والآن ، هل ستحتاجون إلى وجودى الدائم هنا ؟!

أشار إليه (نور) مجيبًا :

ـ كلاً .. تعاون معنا فحسب ، على إحاطة المكان بالحاجز الواقى ، ثم يمكنك العودة إلى (القاهرة) .

قالت (سلوى) فى سرعة :

ـ ولكن ابق مستعدًا طوال الوقت ؛ للحضور بأقصى سرعة ، إذا ما استدعيناك .

ابتسم قائد الحوّامة ، مغمغمًا :

ـ بالتأكيد يا سيدتى .. بالتأكيد .

كان ذلك الحاجز الواقى ، الذى تحدَّث عنه (نور) عبارة عن مجموعة من الأعمدة ، أحاطت بالمعسكر المؤقَّت ، وانطلقت فيما بينها موجهات كهرومغنطيسية قوية ؛ لتصنع حاجزًا منيعًا ، من الطاقة غير المرئية ، يستحيل عبوره دون جهاز خاص ، مثبت فى حزام كل منهم ..

وبعد انتهاء تركيب الحاجز وتشغيله ، استغل القائد

حوّامته ، وارتفع بها ، عائدًا إلى (القاهرة) ، وتاركًا الفريق خلفه ، و(نشوى) تغمغم فى عصبية :

ـ كنت أفضّل أن يبقى .

أجابها (نور) ، وهو يلتقط حقيبة كبيرة :

ـ ما سنفعله هنا مازال يندرج تحت بند (السرية المطلقة) ، وهذا يمنع تواجده طوال الوقت .

فتح الحقيبة ، والتقط منها زيين خاصين ، ألقى أحدهما إلى (رمزى) ، وهو يقول فى حزم :

ـ والآن يا رفاق ، دعونا نبدأ عملنا على الفور .

بدأت (سلوى) و(نشوى) فى إعداد أجهزتهما ، فى حين راح (رمزى) يرتدى ذلك الزى ، الذى ألقاه إليه (نور) ، وهو يتساءل :

ـ ما الذى سنفعله بالضبط ؟!

ارتدى (نور) زيه بدوره ، وهو يقول :

ـ فريق النجدة ، الذى وصل إلى هنا بعد الحادث ،

فحص كل شبر فى المنجم ، دون أن يعثر على أدنى أثر للضحايا ، الذين اختفوا تمامًا ، ولم يعثر أيضًا على تلك الثعابين المزعومة ، ومهمتنا أن نعيد عملية البحث والفحص ، بأسلوبنا نحن ، وأدواتنا نحن .

غمغمت (سلوى) :

ـ وهل تعتقد أن هذا سيصنع فارقًا ؟!

صمت (نور) لحظة ، ثم أجاب فى حزم :

ـ فلنتأمل هذا .

ثم عاد يشدّ قامته ، متابعًا :

ـ هذه الأزياء التى نرتديها ، (رمزى) وأنا ، ستجعل رصدنا سهلاً وممكنًا ، مهما توغلنا فى أعماق المنجم ، وسنحمل معنا نفس ما حمله أفراد الفريق الأول .. آلة تصوير ، وثلاثة مقاييس طيفية ، وأجهزتكم هنا ستفحص وتحلّل كل ماترسله الآلة ، أولاً فأولاً ، بالإضافة إلى رصد حركتنا ، وأية حركة أخرى داخل المكان .

أشارت (نشوى) بيدها ، قائلة :

ـ جهازى سيلتقط أى انبعاث حرارى من داخل المنجم ، سواء أكان من جسديكما ، أو من أى مخلوق حى آخر .

قال (نور) :

ـ عظيم .. المهم أن يظلَّ الاتصال بيننا موجودًا طوال الوقت .

ازدرد (رمزى) لعابه ، مغمغمًا فى توتر :

ـ وماذا لو هاجمتنا تلك الثعابين فى الداخل ؟!

تنهَّد (نور) وهزَّ رأسه ، قائلاً :

ـ سيدهشنى هذا كثيرًا فى الواقع ، فالسؤال الذى سيطرح نفسه عندئذ هو : من أين تأتى بالضبط ؟!

ضغطت (نشوى) أزرار جهازها ، وتطلَّعت إلى شاشته بضع لحظات ، قبل أن تقول :

ـ وسيدهشنى أكثر ، لأن الأجهزة لاتلتقط أى انبعاث حرارى ، أو أية حركة فى الداخل .

تساءل (رمزى) بنفس التوتر :

ـ وماذا لو أن أجسام تلك الثعابين لاتبعث حرارة يمكن التقاطها ؟!

هزَّت (سلوى) رأسها مجيبة :

ـ كل كائن حى ، لابد أن ينبعث من جسده قدر ما من الحرارة ، الناشئة من عملياته الحيوية على الأقل(*) ..

قال (رمزى) فى عصبية :

ـ إنه مجرَّد افتراض .

أجابه (نور) هذه المرة :

ـ ومن أجل هذا الافتراض أحضرنا هذه .

استدار إليه (رمزى) متسائلاً ، فألقى إليه (نور) بندقية قوية ، من بنادق الليزر ، ورفع أخرى أمامه ، مستطردًا :

ـ وسننسفها نسفًا ، لو تصوَّرت أننا فريسة سهلة .

(*) حقيقة ..

فحص (رمزى) سلاحه ، وهو يقول :

ـ تذكَّر أنها تنفث سمها فى وجوه ضحاياها .

منحه (نور) ابتسامة واثقة ، قائلاً :

ـ لماذا الزى والخوذة الواقية إذن يا صديقى ؟!

أومأ (رمزى) برأسه متفهمًا ، ثم ارتدى خوذتـه ، وأحكمها حول رأسه ، قبل أن يحمل سلاحه فى قوة ، قائلاً :

ـ أنا مستعد .

أشار إليه (نور) ، قائلاً فى حزم :

ـ هيا بنا إذن .

اتجها معًا إلى الحاجز الواقى ، وضغط كل منهما زر ذلك الجهاز فى حزامـه ، حتى يمكنهمـا عبوره ، وانبعث مـن جسديهما صوت أشبه بقرقعة النيران لحظـة ، فى أثنـاء تجاوزهمـا الحاجز الكهرومغنطيسى ،

وما إن أصبحا خارجه ، حتى هتفت بهما (سلوى) :

ـ احرصا على نفسيكما جيِّدًا .

لوَّح (نور) بيده ، هاتفًا :

ـ سنحرص على نجاح المهمة .

غمغمت فى توتر :

ـ هذا ما أتوقعه دومًا .

أمـا (نشوى) ، فقد تابعتهمـا ببصرهـا ، وهمـا يتجهان نحو مدخل المنجم القديم ، وتمتمت :

ـ لولا أننى أعلم أين نحن ، لبدوا لى ، بزيهما هذا ، وكأنهما فى مهمة على سطح المريخ .

ارتجف صوت (سلوى) ، وهى تتمتم بدورها :

ـ هذا صحيح ..

لم يكن صوتها وحده يرتجف ، وإنما قلبها أيضًا ،

وبالذات فى تلك اللحظة ، التى اختفى فيهـا جسداهما ، داخل المنجم القديم ؛ فقد التهب عقلها وقلبها لحظتها بسؤال رهيب مخيف ..

تُرى هل سيكتب لها أن تراهما مرة أخرى ؟!

هل ؟!

★ ★ ★

٣ ـ الأعمـاق ..

« ألن يتوقَّف هذا الأمر أبدًا ؟! »

تردَّدت العبارة فى عقل (أكرم) ، وجسده يواصل ذلك الاندفاع العجيب غير المميَّز ، بين التاريخ والعصور ..

وعلى الرغم من خطورة ورهبة الموقف كله ، لم يكن هذا أكثر ما يشغل عقله ..

كان هناك أمر يقلقه أكثر ..

بل يفزعه ..

وإلى أقصى حد ..

ففى عقله ، انغرست ذاكرة أخرى مخيفة ..

ذاكرة (أكرم) آخر ..

من زمن آخر ..

الآن فقط أدرك ما أصابه ..

وكيف حدث ؟!

إنها حالة فريدة ، تحدث لأوَّل مرة ..

لقد عاد هو من مستقبله ؛ لينقذ الأرض من غزو زمنى رهيب ..

ولقد نجح فى مهمته[*] ..

ولكنه ارتطم بحقيقة مخيفة ، تتعلَّق بالسفر عبر الزمن ..

لايمكن أن يتواجد شخص واحد بجسدين ، من زمنين مختلفين ، فى زمن واحد ..

وهذا ما فعله هو ، عندما عاد من المستقبل ، لينقذ الأرض فى زمن ، لم يكن قد غادرها فيه بعد ..

وهكذا حدث الخلل الزمنى العنيف ..

وعلى الرغم من أن تواجده المزدوج هذا لم يستغرق سوى ثانية واحدة ، إلا أن تأثيره كان قويًّا ..

عنيفًا ..

رهيبًا ..

(*) راجع قصة (قراصنة الزمن) .. المغامرة رقم (١٤٠) .

لقد مزج العقلين معًا .. الحالى والمستقبلى ، ثم ألقى الجسد الممتزج عبر الزمان ..

بلا قيود ..

وبلا حدود ..

وهكذا انطلق جسده عبر نهر الزمن ..

وبمنتهى السرعة ..

انطلق على نحو لايمكن أن يستوعبه عقل بشرى عادى ، ولا يمكن أن تصفه قوانين الحركة التقليدية المعروفة ..

فهناك ، حيث لا وجود للأبعاد الأربعة[*] ، من العسير أن يحدِّد المرء إلى أين ينطلق بالضبط ..

ولكن انطلاقة عقله كانت أكثر قوة من انطلاقة جسده ..

(*) قبل أن يعلن (ألبرت أينشتين) نظريته (النسبية الخاصة) ، عام ١٩٠٥ م ، كان العلم يعتبر أنه لا وجود إلا للأبعاد الثلاثة .. الطول والعرض ، والارتفاع .. ثم أضاف إليها (أينشتين) البعد الزمنى ، ليصبح عالمنا ، علميًّا ، عالم له أربعة أبعاد وليس ثلاثة .

لقد أصبح وحده يعرف ما حدث ..

وحده يعلم ما لا يعلمه الآخرون ..

عقله ، الذى امتزج حاضره بمستقبله ، يدرك أن الأرض كانت تواجه ذلك الخطر ..

ولا أحد آخر يمكن أن يعلم هذا ..

أو يدركه ..

أو حتى يستوعبه ..

ولكن السؤال الآن هو : إلى متى سيواصل جسده تلك الانطلاقة الرهيبة ، عبر الزمن والتاريخ ؟!

إلى متى سيحتمل عقله ذلك التعاقب السريع ، بين الليل والنهار ؟!

ذلك الامتزاج المتواصل ، بين مشاهد التاريخ المختلفة ؟!

وهذا يقوده إلى السؤال الأكثر خطورة : تُرى هل يمكن أن يعود إلى واقعه وحاضره وعالمه يومًا ؟!

هل ؟!

وبقى سؤاله الحائر بلا جواب ، يواصل الانطلاق مع جسده ..

عبر الزمن ..

* * *

أضاء مصباحا (نور) و(رمزى) الطريق أمامهما ، عبر المنجم القديم ، الذى بدا ساكنًا هادئًا ، كدأبه طوال الأعوام الطويلة الماضية ..

وباستثناء آثار زحف تلك الثعابين الضخمة المزعومة ، الذى أفسدته أقدام فرق التفتيش والبحث ، لم يكن هناك أى أثر آخر ، يمكن أن يوحى بالموقف الرهيب الذى شهدته تلك الجدران الصخرية المهجورة ، منذ أيام قليلة ..

وبينما تنقل آلة التصوير كل التفاصيل ، إلى الأجهزة الموجودة بالخارج ، والمحاطة بالحاجز الكهرومغنطيسى الواقى ، راح (نور) و(رمزى) يتوغلان فى المنجم أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

وفى اهتمام ، سأل (نور) زوجته ، عبر جهاز الاتصال الخاص :

ـ هل رصدت أجهزتكما ما لم ترصده عيوننا ؟!

أتاه صوتها ، وهى تجيب فى توتر :

ـ مطلقًا .. كل شىء يبدو هادئًا ، وباستثنائكما ، لايوجد أى جسد حى أو متحرك .

توقَّف (نور) عند كومة ضخمة من الأحجار ، تسدّ جزءًا من المنجم ، وفحصها بضوء مصباحه بضع لحظات ، قبل أن يسأل ، عبر جهاز الاتصال الخاص :

ـ ألديكما خريطة قديمة للمنجم ؟!

أتاه صوت (نشوى) قائلة :

ـ كلاً ، ولكننى أستطيع جلبها ، عبر الأقمار الصناعية ، من شبكة المعلومات الدولية .. امهلنى ثلاث دقائق فحسب .

غمغم (نور) :

ـ فليكن .

فحص (رمزى) كومة الأحجار بمصباحه أيضًا ، قبل أن يسأل (نور) :

ـ ما الذى يدور فى ذهنك بالضبط ؟!

أجابه (نور) ، وهو يواصل فحص كومة الأحجار :

ـ من الواضح أن أحدًا لم يحاول رفع هذه الأحجار ، باعتبار أنه لا شىء يمكن أن يأتى من ناحيتها .

غمغم (رمزى) فى حذر :

ـ هذا أمر طبيعى .

هزّ (نور) رأسه ، وهو يقول فى حزم :

ـ خطأ !

سأله (رمزى) فى حذر أكثر ، وضوء مصباحيهما يغمر كومة الأحجار ، التى بدت وكأنها هناك منذ الأزل :

ـ وما الخطأ فى هذا ؟!

أجابه (نور) ، فى حزم أكثر :

ـ الخطأ هو أننا نواجه أمرًا غير طبيعى ، ولا ينبغى أبدًا أن نفكِّر بأسلوب طبيعى .

تساءل (رمزى) فى حيرة :

ـ وهل تعتقد أنه من الممكن أن يأتى أى شىء ، من خلف هذه الكومة ؟!

أجابه (نور) فى صرامة :

ـ فى موقف كهذا ، ينبغى أن نتوقَّع أى شىء .

قالها ، واقترب من كومة الأحجار ، ومدّ يده يتحسَّسها فى اهتمام ، قبل أن يعتدل ، ويقول فى قوة :

ـ الآن أنا واثق مما ذهبت إليه شكوكى .

تساءل (رمزى) فى دهشة متوترة :

ـ واثق من ماذا ؟!

أشار إليه (نور) ، قائلاً :

ـ المس هذه الأحجار ، وستدرك ما أعنيه .

قالها ، واقترب من كومة الأحجار ، ومدَّ يده يتحسَّسها فى اهتمام ..

مَدّ (رمزى) يده فى حذر ، وتحسَّس الأحجار ، قبل أن يغمغم :

ـ ماذا بها ؟! إنها تبدو لى عادية طبيعية .

سأله (نور) :

ـ وماذا عن الغبار والرمال ؟!

تساءل (رمزى) وقد تضاعف حذره :

ـ ماذا عنهما ؟!

رفع (نور) يده أمامه ، قائلاً :

ـ إنهما يكسوان كل شىء هنا ، مع إغلاق المنجم لسنوات وسنوات ، وعلى الرغم من هذا ، فلا أثر لهما على تلك الأحجار .

انتبه (رمزى) إلى هذا الأمر فجأة ، فهتف :

ـ يا إلهى ! هذا صحيح .

أشار (نور) بسبَّابته ، قائلاً :

ـ هذا يعنى أننا أمام محاولة ذكيه ؛ لإخفاء أمر ما يا صديقى .

هتف (رمزى) فى انفعال :

ـ إخفاء ماذا ؟! ولماذا ؟!

هزَّ (نور) رأسه ، قائلاً :

ـ هذا ما سنسعى لكشفه يا صديقى .

ثم قال ، عبر جهاز الاتصال :

ـ (سلوى) .. (نشوى) .. هل التقطتما هذا ؟!

أتاه صوت (سلوى) ، وهى تقول فى توتر بالغ :

ـ نعم ، ولكنه يملأ نفسى رعبًا يا (نور) .

ثم جاء صوت (نشوى) وهى تهتف :

ـ هذه الأحجار تخفى البئر القديمة .

سألها (نور) فى اهتمام :

ـ أية بئر ؟!

أجابته فى حماسة :

ـ ها هى ذى الخريطة أمامى، وبها إشارة إلى وجود بئر قديمة هنا ، ولكن ما حصلت عليه من معلومات ، عبر الشبكة الدولية ، لم يشر إلى أهميتها أو فائدتها .

انعقد حاجبا (نور) ، وهو يقول :

ـ عجبًا ! المفترض أن تحوى الوثائق كل شىء عن المكان ، بكل التفاصيل .

أجابته فى سرعة :

ـ من الواضح أن بعضهم قد محا المعلومة لسبب ما ، ولكنه لم يحذف البئر من خريطة المنجم القديمة .

صمت (نور) بضع لحظات ، وضوء مصباحه يفرز تلك الأحجار مرة أخرى ، قبل أن يسألها فى اهتمام حازم :

ـ ما السبب الحقيقى ، الذى ذكرته شبكة المعلومات ، لإغلاق هذا المنجم فى الماضى ؟!

هتفت (نشوى) فى دهشة ، عبر جهاز الاتصال الخاص :

ـ أبى .. كيف علمت أنه هناك سبب غير تقليدى ؟!

أجابها فى حسم :

ـ مجرَّد استنتاج .

بدا مزيج من الدهشة والإعجاب فى صوتها ، وهى تقول :

ـ استنتاج رائع يا أبى ، فالواقع أن المنجم لم يتم إغلاقه بسبب نفاد المادة الخام ، كما يحدث فى المعتاد ، وإنما بسبب بعض حوادث الاختفاء ، التى ظلَّت بلا تفسير ..

سألها فى اهتمام أكثر :

ـ ومتى حدث هذا ؟!

أجابته فى سرعة :

ـ بعد عامين فحسب من تحرير (سيناء) ، واستعادتنا للمنجم من الإسرائيليين .

انعقد حاجباه ، وهو يسألها :

ـ وكم بلغت نسبة الإنتاج ، قبل إغلاق المنجم ؟!

أجابت فى اهتمام :

ـ أقل من المتوسِّط .

هزَّ رأسه متمتمًا :

ـ هذا ما توقَّعته .

عاد (رمزى) يسأله :

ـ (نور) .. ما الذى يدور فى ذهنك بالضبط ؟!

صمت (نور) بضع لحظات ، قبل أن يهزَّ رأسه ، متمتمًا :

ـ لم يحن وقت الاستنتاجات بعد .

ثم أشار إلى كومة الأحجار ، مستطردًا فى حزم :

ـ دعنا نشق طريقنا إلى تلك البئر أوَّلاً .

مَد يده ، يلتقط حجرًا من الكومة ، و ....

وبكل دهشته ، هتف متراجعًا :

ـ إنها ليست كومة أحجار .

هتف (رمزى) فى دهشة :

ـ ليست ماذا ؟!

حاول أن يلتقط حجرًا بدوره ، عندما أدرك ما يعنيه (نور) بقوله هذا ..

فما بدا أشبه بكومة من الأحجار ، لم يكن فى الواقع سوى صخرة واحدة كبيرة ، تم نحتها بمنتهى الدقة ، لتبدو أشبه بكومة أحجار فى الركن ..

وبكل دهشته ، هتف (رمزى) :

ـ رباه ! إنها وسيلة بشرية لإخفاء مدخل البئر .

أجابه (نور) فى حزم :

ـ بالضبط .

ثم عاد يفحص تلك الكومة الزائفة من منظور جديد ، مستطردًا :

ـ وهناك وسيلة ما لتحريكها حتمًا .

أتاه صوت ابنته (نشوى)، عبر جهاز الاتصال الخاص، وهى تقول:

- أبى .. صِلْ جهاز الاتصال بتلك الصخرة، واترك لى الباقى.

غمغم (نور)، وهو يلصق جهاز الاتصال بالصخرة:

- فليكن.

ومن موقعها، ضغطت (نشوى) أزرار جهازها فى سرعة، وغمغمت:

- أبى على حق مرة أخرى .. هناك مجال كهرومغطيسى محدود، حول تلك الصخرة، وهذا يعنى أنه هناك أسلوب إليكترونى لتحريكها.

سألتها (سلوى)، فى اهتمام قلق:

- وهل يمكنك التعامل معه ؟!

أجابتها فى حسم، وأصابعها تتواثب على أزرار جهازها:

- بالتأكيد .. إنه نظام قديم يعود إلى أوائل السبعينات، من القرن العشرين، ويمكننى السيطرة عليه، خلال عشرين ثانية فحسب.

مع آخر حروف كلماتها، أصدر جهازها رنينًا خافتًا، فى نفس اللحظة التى تحركت فيها تلك الصخرة التمويهية حول نفسها، لتكشف مدخل البئر القديمة، فغمغم (رمزى) فى إعجاب، امتزج بتوتر الموقف:

- (نشوى) هذه عبقرية بحق.

تمتم (نور)، وهو يوجِّه ضوء مصباحه إلى البئر:

- هذا صحيح.

لم يكن الأمر يحتاج إلى كثير من الذكاء، ليدرك المرء، من النظرة الأولى، أن البئر قد استخدمت، منذ فترة قليلة؛ فقد كانت الجدران نظيفة إلى حد ما، وهناك سلم معدنى، مثبت فيها، ويمتدّ إلى أعماق البئر ..

وفى اهتمام ، سأل (نور) ابنته ، عبر جهاز الاتصال :

- كم يبلغ عمق البئر فى الخرائط ؟!

أجابته فى حيرة :

- ليس كما يبدو هنا .

وصمتت لحظة ، ثم أضافت :

- الخرائط تقول : إن عمقها لايتجاوز الأمتار الستة .

تبادل (نور) نظرة صامتة متوترة مع (رمزى) ، قبل أن يقول هذا الأخير :

- إنها تبدو أكثر من ثلاثين مترًا على الأقل .

كان ضوء مصباحيهما يغمر البئر ، عندما حدثت تلك الحركة فجأة ..

شىء ما تحرك ، تحت ضوء المصباحين ، فى أعماق البئر ..

شىء لمحته عيونهما ، وسجلته عدسة آلة التصوير ، لنصف ثانية فحسب ، قبل أن يخرج من مجال الرؤية ، ويغيب وسط الظلام ..

وفى انفعال جارف ، هتف (رمزى) :

- ما هذا بالضبط ؟!

هتف (نور) بزوجته ، عبر جهاز الاتصال :

- (سلوى) .. هل سجّلت هذا ؟!

أجابته (سلوى) فى انفعال ، وهى تضغط أزرار جهازها :

- بالتأكيد .

سألها فى توتر :

- ما ماهيته بالضبط ؟!

أتاه صوت (نشوى) هذه المرة ، وهى تقول :

- سنعمل على تحليل الصورة فورًا .

راحت كلتاهما تعملان بكل جهدهما ، فى محاولة لتكبير الصورة ، وإبطائها ، وتحليل ماهية ذلك الشىء ، الذى تحرَّك فى قاع البئر ، لنصف ثانية فحسب ، فى حين تساءل (رمزى) فى توتر ، داخل المنجم :

- أتعتقد أن هذا أحدها ؟!

لم يجب (نور) على الفور ، وهو يفحص قاع البئر بمصباحه الضوئى ، فأضاف (رمزى) فى عصبية :

- أعنى تلك الثعابين !

غمغم (نور) فى اقتضاب :

- ربما .

كان هناك شىء ما يقلقه ، ويعربد فى أعماقه ..

شىء يربط بين تلك المعطيات ، التى اختنق بها عقله ..

الاحتلال الإسرائيلى لـ (سيناء) ..

السيطرة الصهيونية على المنجم ..

حرب أكتوبر ١٩٧٣م ..

استعادة (سيناء) ..

ومناجمها ..

انخفاض إنتاجية المنجم ..

حالات الاختفاء الغامضة ..

إغلاق المنجم ..

والثعابين ..

الكلمة الأخيرة راحت تتكرَّر فى ذهنه ، على نحو متصل ، وهو يتطلَّع إلى أعماق البئر ، حيث بدا من الواضح أنها تنتهى بفجوة كبيرة ..

فجوة لم تكن موجودة من قبل ، وفقًا للخرائط القديمة المعتمدة ..

وفى أعماقه ، امتزجت الكلمتان واختلطتا ، وبدتا وكأنهما تحملان الإيقاع نفسه ..

كلمتا الإسرائيليين .. والثعابين ..

هناك حتمًا تشابه ما ..

وتقارب ما ..

و ....

« يا إلهى ! (نور) .. »

صرخ (رمزى) بالكلمة ، فانتزعت (نور) من أفكاره فى عنف ، وجعلته يلتفت إليه ، هاتفًا :

ـ ماذا حدث ؟!

أشار (رمزى) بسبَّابته ، إلى عمق المنجم ، فى نفس اللحظة ، التى ارتفع فيها صوت (سلوى) ، عبر جهاز الاتصال الداخلى ، وهى تهتف :

ـ يا إلهى ! هناك شىء يتحرَّك .

غمر (نور) عمق المنجم بضوء مصباحه القوى ، وهو يتساءل فى توتر ، وبندقيته الليزرية تتحفز ، فى يده الأخرى :

ـ ما ماهيته ؟!

أجابته فى توتر :

ـ لست أدرى .. أجهزتنا لاتسجِّل أى انبعاث حرارى ، سوى ما يبعثه جسداكما .

انعقد حاجبا (نور) فى شدة ، وتحفَّزت بندقيته الليزرية أكثر وأكثر ، وضوء مصباحه يبحث عن أى جسم متحرِّك ..

أى جسم ..

« خلفك يا (نور) .. »

انبعث صوت (سلوى) ، بصرختها تلك ، عبر جهاز الاتصال الخاص ، فاستدار (نور) بكيانه إلى ما خلفه ، و ....

ولم يكن هناك شىء !!

أى شىء !!

فقط جدران المنجم الصامتة الساكنة ..

« كان هناك شىء ما يتحرَّك خلفك يا (نور) .. »

هتفت (سلوى) بالعبارة ، عبر جهاز الاتصال ، وبدا صوتها شديد التوتر والعصبية ، وهى تتابع :

ـ لقد سجلته الأجهزة هنا .

غمغم (رمزى) فى توتر ، وهو يتلفَّت حوله :

ـ (نور) .. ماذا يحدث هنا ؟!

هزَّ (نور) رأسه ، قائلاً فى حذر :

ـ لست أدرى .. هناك شىء ما ، يحاول تشتيت انتباهنا .

غمغم (رمزى) ، وهو يواصل التلفُّت حوله فى عصبية :

ـ أتعشَّم أن يكون هذا هو الهدف الوحيد .

قال (نور) فى صرامة ، لم تخل من التوتر :

ـ إنهم يحاولون منعنا من فحص البئر .

التفت إليه (رمزى) بحركة حادة ، قائلاً :

ـ من هم يا (نور) ؟!

انعقد حاجبا (نور) فى شدة ، وهو يجيب فى حزم :

ـ الثعابين .

سرت قشعريرة باردة كالثلج ، فى جسد (رمزى) ، مع نطق (نور) للكلمة ، وعاد يتلفَّت حوله ، فى عصبية بالغة ، وبصره يرتجف مع تلك الظلال والتكوينات العشوائية ، التى يصنعها ضوء مصباحه على الجدران ..

أما (نور) ، فقد بدا أكثر حزمًا وصرامة ، وهو يقول :

ـ لا بدّ أن نهبط لفحص أعماق البئر .

اتسعت عينا (رمزى) عن آخرهما ، وهو يحدِّق فى البئر ، هاتفًا فى استنكار :

ـ نهبط هناك ؟! قبل أن نتبين ماهية ذلك الشىء ، أو تلك الأشياء ، التى تتحرَّك فى الأعماق .

لوَّح (نور) ببندقيته الليزرية ، وهو يقول فى صرامة :

- لو أن (أكرم) هنا ، لما تردَّد لحظة واحدة ، فى أن يهبط معى إلى أعماق الجحيم ، لو اقتضى الأمر .

هتف (رمزى) فى غضب :

- ما الذى يعنيه هذا بالضبط ؟!

عضَّ (نور) شفته السفلى ، وهو يتمتم :

- لا يعنى سوى أننى أفتقده .

واستدار إلى (رمزى) ، وربَّت على كتفه ، مستطردًا :

- وبشدة .

تمتم (رمزى) :

- كلنا نفتقده يا (نور) .

ثم شدَّ قامته فى حزم ، مستطردًا :

- ولكننى سأتبعك إلى أى مكان تذهب إليه .

أتاهما صوت (نشوى) ، وهى تقول فى توتر شديد :

- الأفضل أن نؤجِّل هذا إلى الصباح ، فالشمس تغرب الآن بالفعل ، وأجهزتنا لم تحدد هوية ذلك الشىء ، الذى يتحرك فى أعماق البئر بعد .

عقد (نور) حاجبيه مرة أخرى ، قائلاً :

- شروق الشمس أو غروبها لا يعنينا هنا ، ثم إننى أفضِّل الطرق على الحديد وهو ساخن ، ولا أحد يدرى ما الذى يمكن أن يحدث خلال الليل .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى حزم صارم :

- سنهبط إلى أعماق البئر الآن .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى انبعث فى المنجم كله فحيح قوى ..

فحيح رهيب ، بدا وكأنه ينبعث من ألف ثعبان ..

أو يزيد ..

* * *

٤ ـ فحيح ..

فجأة ، ظهرت تلك البقعة من الضوء ، من بعيد ..

بعيد جدًا ..

ولأول مرة ، منذ وجد نفسه فى هذا الموقف الرهيب ، أصبح بإمكان (أكرم) أن يعرف إلى أين يتجه ..

فبنفس السرعة المخيفة ، راح جسده يندفع نحو تلك البقعة من الضوء ..

وفى حيرة ، راح يتطلّع ، وهو يستعيد كل ما قرأه فى حداثته ، حول ما عرف أيامها باسم تجارب الاقتراب من الموت ..

تلك التجارب ، التى مرّ بها بشر ، دنوا من الموت ، حتى صاروا قاب قوسين أو أدنى منه ..

أناس توقّفت قلوبهم ..

أو انهارت دوراتهم الدموية ..

أو حتى توقّفت أمخاخهم لحظات ، قبل أن تعيدهم الخبرات الطبية ، والجهود العلمية القوية إلى حالة الوعى والوجود ..

كل هؤلاء اتفقوا على أنهم ، فى تلك اللحظات ، رأوا أنفسهم فيما يشبه نفقًا طويلاً ، فى نهايته ضوء مبهر(*) ..

وهو لم يقتنع بهذا الأمر أبدًا ..

عقيدته وعقله منعاه من الاقتناع ، بأن أى كائن كان ، يمكن أن يقترب من الموت ، إلى هذا الحد ..

ومازال يرفض هذا بشدة ..

وللأسباب نفسها ..

(*) المعلومة تعود إلى دراسات ضخمة ، قام بها علماء الغرب ، وتم نشرها فى مئات الرسائل والأبحاث العلمية ، وفى مجلات طبية جادة وشهيرة ، وأطلق عليها اسم (العودة من الموت) ، وصدرت بشأنها عشرات الكتب العلمية ، وربما لأن معظم العلماء ، الذين شاركوا فى هذه التجارب ، لا يستندون إلى خلفية عقائدية متينة .

لقد مال دومًا للاقتناع بالرأى العلمى الطبى ، الذى اعتبر أن ما رآه أولئك الأشخاص ، ليس سوى نوع من الهلوسة ، التى يسببها نقص الأكسجين عن المخ ، وأنها تنتهى بانتعاشه مرة أخرى ..

ولكنه الآن ينطلق وسط الفراغ ..

وها هى ذى بقعة الضوء ..

ولكن عقله ما زال يرفض الفكرة ..

وبشدة ..

هناك إذن تفسير آخر حتمًا ..

تفسير يتعلَّق بالزمن ..

وبالانطلاق عبر الزمن ..

وعبر التاريخ ..

ربما كانت تلك البقعة من الضوء هى نقطة البداية ..

بداية الزمن ..

أو بداية التاريخ ..

أو ربما هى النهاية ..

سرى فى جسده توتر عنيف ، عندما جالت الفكرة الأخيرة بذهنه ، وعاد يتطلَّع إلى تلك البقعة الضوئية ، التى تقترب وتتضخَّم فى سرعة ، من منظور جديد ..

منظور متشائم ..

فلسبب ما ، لم يدر ماهيته بالضبط ، راوده يقين بأن وصوله إلى تلك البقعة الضوئية يعنى نهايته ..

وعلى نحو بشع ..

وبكل إرادته وقوته ، حاول أن يقاوم ..

أن يسيطر على جسده ..

على كيانه ..

أن يتوقَّف على الأقل ..

ولقد حاول ..

وحاول ..

وحاول ..

ولكن شيئًا ما كان يمنعه من السيطرة على حركة جسده ، واندفاعته المخيفة ، نحو بقعة الضوء ، التى تقترب وتتضخم أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

ومع ذلك الشىء الأشبه باللهب ، الذى بدأ يتضح فى قلب بقعة الضوء العجيبة المخيفة ، تأكد شعوره بأنها تحمل إليه الهلاك ..

والضياع ..

والفناء ..

لذا فقد عاد يقاتل فى استماتة ، محاولاً منع جسده من الاندفاع نحوها ، بهذه السرعة الرهيبة ..

ثم أدرك أخيرًا أنه لا فائدة ..

اندفاعته السريعة ، عبر نهر الزمن ، تمنعه من السيطرة على أى شىء ..

أى شىء على الإطلاق ..

وهذا يعنى النهاية حتمًا ..

نهايته ..

وأمام عينيه ، تضخم الضوء ، واحتل معظم مجال الرؤية ، فى حين بدا ذلك اللهب فى أعماقه رهيبًا ..

رهيبًا ..

حتى آخر مدى ..

ونحوه مباشرة ، راح جسده يهوى ..

ويهوى ..

ويهوى ..

بلا أمل ..

* * *

تحرك حاجز معدنى ضخم ، ليكشف حجرة واسعة ، فى منطقة غير عربية ، فى الشرق الأوسط ، ونهض رجل ضخم الجثة ، أشيب الشعر ، غليظ الملامح ، من خلف مكتب كبير ، داخل تلك الحجرة ، ليستقبل آخر

نحيل القوام ، متين البنيان ، بادى التوتر ، وخاصة عندما صافحه الأشيب ، متسائلاً :

ـ ما تلك الأمر المهم ، الذى طلبت مقابلتى بشأنه ، على وجه السرعة ؟!

ازدرد النحيل لعابه فى صعوبة ، وهو يقول :

ـ المصريون سيعيدون افتتاح ذلك المنجم .

سأله الضخم فى حذر :

ـ أى منجم ؟!

بدا النحيل شديد التوتر ، وهو يجيب :

ـ منجم (جبل الطور) .

التقى حاجبا الضخم الكثين ، وهو يتراجع فى مقعده ، قائلاً :

ـ وما الذى دفعهم إلى هذا ؟!

أجابه النحيل فى عصبية :

ـ ليس هذا هو المهم الآن .

سأله الضخم فى غلظة ، وهو يمرر أصابعه المكتظة على شعره الأشيب :

ـ ما المهم إذن ؟!

أجابه النحيل ، فى عصبية أكثر :

ـ مشروعنا .. ذلك المشروع الذى بدأناه فى أوائل سبعينات القرن العشرين ، لضمان تواجدنا فى أعماق المصريين ، والذى تطوَّر مع بداية القرن الحادى والعشرين ؛ لانتاج جيشنا الخاص ، الذى لايمكن قهره أبدًا .

تراجع الضخم فى مقعده مرة أخرى ، وراح يحك ذقنه بسَّبابته بعض الوقت ، وهو يرمق النحيل بنظرة نارية ، قبل أن يقول فى غلظة :

ـ هات ما لديك يا رجل .

بذل النحيل جهدًا خرافيًا هذه المرة ، فى محاولة لازدراد لعابه ، عبر حلقه الذى صار أكثر جفافًا من رمال الصحراء ، قبل أن يقول بصوت متحشرج :

- تلك المرحلة من مشروع الثعابين ، خرج عن الإطار المرسوم له .

دفع الضخم جسده إلى الأمام ، وهو يهتف :

- أية مرحلة ؟!

مال النحيل نحوه بدوره ، وهو يجيب ، فى شىء من الحدة :

- المرحلة الثالثة .

انعقد حاجبا الضخم بشدة ، وهو يتراجع مرة ثالثة فى بطء ، قبل أن يقول فى صرامة غاضبة :

- ما كان ينبغى أن يحدث هذا .

قلب النحيل كفيه ، قائلاً :

- من كان يتصوَّر أن يحاولوا إعادة افتتاح المنجم ، بعد كل ما فعلناه فى السابق ؛ لإبعادهم عنه ، وإخافتهم منه ؟!

مطَّ الضخم شفتيه الغليظتين ، على نحو زاد من قبح ملامحه ، وهو يقول فى غضب صارم :

- كان المفترض أن يتم إعدام كل العينات .

تردَّد النحيل بضع لحظات ، قبل أن يجيب ، فى خفوت حذر :

- الواقع أننى رأيت أنه من الأفضل أن ..

قاطعه الضخم ، وهو يضرب سطح مكتبه براحته ، صارخًا بكل الغضب والاستنكار :

- رأيت ؟!

ثم هبَّ من مقعده بحركة حادة ، ارتجَّ لها جسده الضخم كله ، وهو يقول فى ثورة :

- ليس من حقك أن ترى .. ليس من حق أى مخلوق هنا أن يرى أى شىء .. أنا وحدى أقرِّر ما ينبغى ، وما لا ينبغى .. أنا وحدى أحددُ ما يمكن أن يحقِّق مصلحة شعبنا .

انعقد حاجبا النحيل أيضًا ، وانتفض جسده من فرط الانفعال ، وهو يقول فى حدة عصبية :

ـ عجبًا ! هذا يذكرنى بسلفك ، الذى تصوَّر أنه يحقِّق مصالح شعبنا ، ثم أدت سياسته إلى انقلاب العالم كله علينا ، ورفضه لمذابحه البشعة ، مما تسبَّب فى عزلتنا ، وانهيارنا اقتصاديًّا فيما بعد .

احتقن وجه الضخم بشدة ، وهو يلوِّح بسبابته فى وجه النحيل ، صائحًا :

ـ هأنتذا تردِّد ما يردده الحاقدون عن عمى الراحل ، الذى اغتالته يد عربية ، وهو فى ذروة نجاحه ..

قال النحيل ، فى حدة أكثر :

ـ حقًّا ؟! ألا تؤكِّد كتب التاريخ أنه المسئول عن انهيار دولتنا ؟!

صاح الضخم بغضب هادر :

ـ خطأ .. خطأ .. سقوط (أمريكا) ، بعد احتلال الأرض ، كان هو السبب المباشر لهذا(*) .. لقد فقدنا راعيتنا ،

(*) راجع قصة (الاحتلال) .. المغامرة رقم (٧٦) .

ومؤيدتنا ، والقوة العظمى ، التى كنا نستند إليها ، و ....

قاطعه النحيل فى حنق :

ـ وانكشفت قوتنا الحقيقية .

احتقن وجه الضخم أكثر وأكثر ، وبدا وكأنه سيثب بجسده الهائل على النحيل ، ليسحقه سحقًا ، إلا أنه لم يلبث أن عاد إلى مقعده ، ولوَّح بيده فى عصبية ، قائلاً فى صرامة :

ـ فليكن .. أنت لم تؤمن أبدًا بقوة شعبنا .

قال النحيل ، فى صرامة أكثر :

ـ ليست هذه قضيتنا الآن .

مطَّ الضخم شفتيه مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ ما قضيتنا إذن ؟! تلك الثعابين ؟!

أجابه النحيل فى عصبية :

ـ بالتأكيد ، فقد بدأت المواجهة ، بينهم وبين المصريين .

هزَّ الضخم كتفيه المكتظين بلا مبالاة ، قائلاً :

ـ فليذهب المصريون إلى الجحيم .. لماذا نشغل أنفسنا بهم .. دع تلك الثعابين تلتهمهم بلا رحمة .

قال النحيل فى حنق :

ـ وماذا لو لم يحدث هذا ؟!

انعقد حاجبا الضخم مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ ماذا تعنى ؟!

أشار النحيل بيده ، قائلاً :

ـ أعنى ماذا لو تمكَّن المصريون من السيطرة على الموقف ، وحصلوا على أحد ثعابيننا ، من الجيل الثالث ، وأدركوا الحقيقة كلها .

صمت الضخم بضع لحظات ، قبل أن يتساءل فى غلظة :

ـ وما الذى يمكن أن يفعلوه عندئذ ؟!

أجابه النحيل ، فى حدة واقتضاب :

ـ الكثير .

انعقد حاجبا الضخم أكثر وأكثر ، وارتسمت العصبية واضحة فى ملامحه ، ممتزجة بعلامات تفكير عميق ، بدا من الواضح أنه يتجه به نحو قرار ينوى اتخاذه ..

قرار حاسم ..

ورهيب ..

★ ★ ★

تطلَّعت (نشوى) فى توتر بالغ إلى قرص الشمس ، هو يختفى خلف جبال (سيناء) ، وقالت فى عصبية ، وأصابعها تتقافز على أزرار جهازها :

ـ مازلت أصرّ على أنه من الأفضل أن ننتظر شروق الشمس .

غمغمت (سلوى) ، فى عصبية مماثلة :

ـ (نور) لن يتراجع أبدًا .

وصمتت لحظة ، قبل أن تضيف :

ـ ثم إنه يعرف ما ينبغى عليه أن يفعل .

هتفت (نشوى) :

ـ ولكن عدم وضوح الصورة ، ما زال يمنعنا من تحديد هوية ذلك الشىء ، الذى كان يتحرك فى الأعماق ، التى يريدان الهبوط إليها ثم إنه هناك ذلك الفحيح الرهيب ، الذى لم نحدّد مصدره بعد .

كرّرت (سلوى) ، وهى تقاوم دمعة حبيسة فى مقلتها :

ـ (نور) لن يتراجع .

قالت (نشوى) ، فى عصبية أكثر :

ـ فلننتظر حتى تتضح الصورة على الأقل .

تنهدّت (سلوى) ، مغمغمة :

ـ لن ينتظر .

مطّت (نشوى) شفتيها ، وهى تضغط زر جهاز الاتصال ، قائلة :

ـ أبى .. أجهزتنا سجّلت ذلك الفحيح ، ولكنها لم تحدد موقعه ، وكأنما انطلق من كل مكان ، فى آن واحد .

أتاها صوت (نور) ، وهو يقول :

ـ ابحثى عن نموذج لفحيح طبيعى ، لبعض أنواع الأفاعى ، وحاولى مقارنته بما سجلته الأجهزة .

أجابت فى سرعة :

ـ سأفعل على الفور .

ثم تردّدت لحظة ، قبل أن تسأله :

ـ أما زلت تصرّ على الهبوط ، فى قاع تلك البئر ؟!

صمت لحظة ، قبل أن يتجاهل سؤالها ، قائلاً :

ـ ألم يتم تحديد هوية ذلك الشىء المتحرّك بعد ؟!

تنهدّت فى توتر ، عندما أدركت أنه لا يرغب فى مناقشة الأمر ، ثم قالت فى استسلام :

ـ إنه شىء حى بكل تأكيد ، فأجهزة الرصد الحرارى سجّلت انبعاثًا حراريًا منه ، ولكن مقاييس الطيف لم ترصده ، تحت أية مجموعة معروفة ، حتى مقياس الطيف الجينى ، لم يمكنه تحديد فصيلة واضحة له .

سألها فى اهتمام :

- إنه ليس ثعبانًا إذن .

ترددت لحظة ، قبل أن تجيب :

- ليس بالضرورة .

قال فى صرامة :

- أى جواب هذا ؟! إنه إما أن يكون ثعبانًا أو لايكون كذلك !

ترددت لحظة أخرى ، قبل أن تحسم أمرها ، مجيبة :

- جزء منه كذلك بالتأكيد .

ارتفع حاجبا (رمزى) فى دهشة ، عند سماعه جوابها الأخير ، فى حين انعقد حاجبا (نور) ، وهو يقول :

- أهذا ما قاله مقياس الطيف الجينى ؟!

أجابته (نشوى) فى سرعة ، عبر جهاز الاتصال :

- كلاً .. مقاييس الطيف الجينية لم تبلغ هذا الحد من الكمال بعد .. إنه تحليل الصورة ، فالحراشيف التى تغطى ذلك الجزء المتحرك ، فى أعماق البئر ، تشبه تلك التى تغطى أجسام الثعابين ، ولكنها تختلف عنها ، فى امتزاجها بخلايا أخرى غير مميزة بحيث لايمكن اعتبارها حراشيف ثعابين تقليدية .

قال (نور) فى حزم :

- من المؤكد أن ما نواجهه ليس عاديًا أو تقليديًا .

ثم تلفت حوله ، قبل أن يستطرد :

- وإنه ليدهشنى حقًا أنه لم يحاول مهاجمتنا مباشرة حتى الآن .

قال (رمزى) فى عصبية :

- ربما لأنه يعلم أننا سنهبط إليه بأقدامنا ، فلم يجد داعيًا لإرهاق نفسه بالصعود إلينا .

قال (نور) فى صرامة :

- دعابة غير طريفة يا (رمزى) .

ثم أشار إلى فتحة البئر ، مستطردًا :

ـ والآن هل ستصحبنى أم لا ؟!

رفع (رمزى) بندقيته الليزريـة فى حزم ، وهو يجيب :

ـ بغضّ النظر عن اختلاف رأيينا فى هذا الشـأن ، فقد أخبرتك أننى سـأصحبك إلى الجحيم نفسـه ، لـو اقتضى الأمر .

التقط (نور) نفسًا عميقًا ، وقال :

ـ عظيم .. فلنبدأ إذن ، على بركة الله .

ثم أضاف ، وهـو يضع قدمـه على أولـى درجات السلم المعدنى ، المثبت فى جدار البئر :

ـ سأتقدَّمك أنا .

ثبت مصباحه اليدوى فى حزامه ، بحيث يضىء قـاع البئر طوال الوقت ، ثم ربط آلة التصوير على كتفه ، و ...

وبدأ الهبوط ..

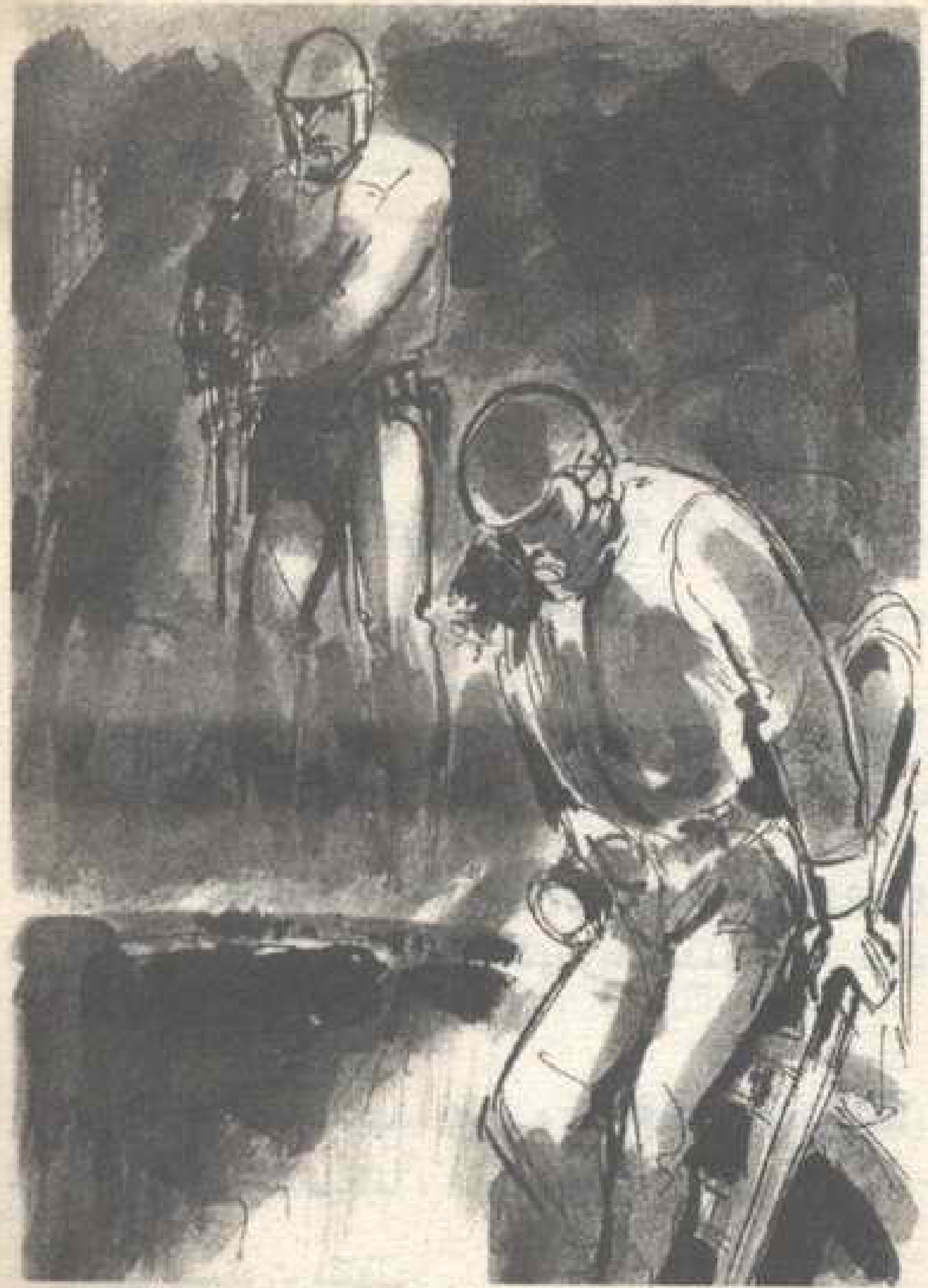

ثبت مصباحه اليدوى فى حزامه ، بحيث يضىء قاع البئر طوال الوقت ، ثم ربط آلة التصوير على كتفه ..

وعلى الرغم من توتره البالغ ، وعدم ارتياحه لما يفعلاه ، تبعه (رمزى) إلى الأعماق ..

أعماق البئر ..

أو أعماق الخطر ..

والمجهول ..

ومع متابعتها لحركة آلة التصوير ، على شاشتها الكبيرة ، قالت (سلوى) فى عصبية متوترة :

- تُرى ما الذى ينتظرهما هناك ؟!

هزّت (نشوى) رأسها فى قوة ، قائلة :

- كان ينبغى لأبى أن ينتظر النتائج .

ثم حبست أنفاسها ، وهى تتابع حركة آلة التصوير ، و(نور) و(رمزى) يواصلان الهبوط الحذر ، فى تلك البئر العميقة ..

كان ضوء مصباحيهما يضىء القاع كله ، ولكن كل شىء ، بدا هادئًا ساكنًا ، فغمغم (رمزى) فى توتر :

- ذلك السكون يقلقنى .

قال (نور) ، محاولاً أن يبتسم :

- ربما لأنه يذكرك بالسكون التقليدى ، الذى يسبق العاصفة .

هزّ (رمزى) رأسه ، قائلاً :

- بل لأنه يعيدنى إلى ما درسته عن السلوك الحيوانى الغريزى ، الذى يدفع الحيوان إلى السكون التام ، عندما يتربّص بفريسته .

عقد (نور) حاجبيه دون تعليق ؛ فقد كان يتفق تمامًا مع ذلك الرأى ..

هناك حتمًا شىء ما ، يتربّص بهما هناك ..

فى أعماق البئر ..

شىء يشبه الثعابين ..

أو الوحوش ..

ودفعه هذا الشعور إلى أن تتحفّز أصابعه أكثر ،

على بندقيته الليزرية ، وهو يواصل الهبوط ، وعيناه تتابعان ضوء مصباحه ومصباح (رمزى) فى الأعماق ..

ثم فجأة ، انبعث ذلك الفحيح مرة أخرى ..

فحيح قوى رهيب ..

ولكنه لم ينبعث من الأعماق ..

أو حتى من المنجم فوقهما ..

لقد انبعث من نقطة ما ، فى منتصف المسافة ، وعلى نحو جعل (رمزى) يتوقَّف دفعة واحدة ، هاتفًا :

- إنهم هنا .

تشبَّث (نور) بإحدى درجات السلم بيسراه ، ثم أدار فوهة بندقيته الليزرية مع ضوء مصباحه ، نحو الجدار المقابل ، ليفحصه فى اهتمام ، قبل أن يتوقَّف عند فتحة مستديرة كبيرة فى منتصفه ، قائلاً :

- ذلك الفحيح آتٍ من هنا على الأرجح .

غمغم (رمزى) فى حذر قلق :

- أعتقد هذا .

وجد (نور) صعوبة بالغة ، فى الضغط على زر جهاز الاتصال ، فى وضعه هذا ، ثم قال عبره فى حزم :

- (نشوى) .. هل يمكنك فحص ما يوجد ، داخل تلك الفتحة هناك ؟!

أتاه صوتها ، وهى تقول :

- ليس من هذه الزاوية .. حاول الهبوط قليلاً ؛ لتصبح فى مواجهتها ، على أقرب نحو ممكن ..

غمغم فى حزم :

- سأفعل .

واصل هبوطه ، حتى أصبح فى مواجهة تلك الفتحة تمامًا ، فوجَّه إليها عدسة آلة التصوير ، قائلاً :

- أهذا مناسب ؟!

أجابته ، عبر جهاز الاتصال :

- إنها زاوية مثالية .

هبط (رمزى) بدوره ، وهو يقول فى عصبية :

- لست أرى أنه من الحكمة أن نقترب بهذا القدر ، من فتحة انبعث منها مثل هذا الفحيح الرهيب .

أجابه (نور) فى حزم :

- لا بد أن نعرف ما الذى يحدث داخلها .

التقطت (نشوى) الصورة ، التى تنقلها آلة التصوير ، بعدستها الخاصة ، التى ترصد الحركة ، والانبعاث الحرارى ، وتغذى مقاييس الطيف الثلاثة ، وراحت أصابعها تجرى على جهازها ، وهى تقول :

- عجبًا ! الفحيح انبعث من تلك الفتحة بالفعل ، ولكنها لاتحوى أى شىء متحرك ، ولايوجد بداخلها أى مصدر ، ينبعث منه أدنى قدر من الحرارة .

غمغم (رمزى) ، فى عصبية أكثر :

- مازلت أرى أنه ليس من الحكمة أن ..

قاطعه فجأة صوت (سلوى) ، وهى تهتف ، عبر جهاز الاتصال :

- ما هذا بالضبط ؟!

سألها (نور) فى سرعة :

- هل رصدتما شيئًا ؟!

أجابه صوت (نشوى) ، وهو يحمل قدرًا هائلاً من الانزعاج :

- الأرض ترتج على نحو عجيب .

هتف (رمزى) بمنتهى الدهشة :

- ترتجّ ؟! ولكننا لا نشعر بأى ارتجاجات هنا .

انعقد حاجبا (نور) فى شدة ، وهو يغمغم :

- يا إلهى !

وفى اللحظة نفسها ، هتفت (سلوى) :

ـ ليس عندكما .. بل هنا .. يا إلهى ! إن الـ ..

بترت عبارتها بغتة ، ليمتزج صوتها بصوت (نشوى) ، وكلتاهما تطلقان صرخة قوية ..

صرخة حملت الرعب ..

كل الرعب ..

★ ★ ★

٥ ـ الضحايا ..

« لقد اتخذت قرارى .. » ..

نطق الضخم بالعبارة فى صرامة ، فاشرأبَّ النحيل بعنقه ، قائلاً :

ـ ماذا ستفعل ؟!

التقط الضخم نفسًا عميقًا ، قبل أن يجيب :

ـ سنسعى لحل المشكلة ، واختبار أحد أسلحتنا السرية كالمعتاد ..

انعقد حاجبا النحيل ، وهو يقول فى حذر :

ـ لم أفهم المقصود بالضبط .

نهض الضخم من خلف مكتبه وبدا منتشيًا على نحو طبيعى ، وهو يقول :

ـ عجبًا ! هذا ما نفعله منذ الأزل .. نثير المشاكل فى كلِ مكان ، ثم نتدخَّل لحسمها ، ونستغل الفرصة للتحقق من قوة أى سلاح جديد لنا .

قال النحيل ، وقد تضاعف حذره :

- أعلم أن هذا ما نفعله منذ الأزل ، ولكننى لم أفهم ، أى سلاح سرى هذا ، الذى سنسعى لاختباره ؟!

تألقت عينا الضخم ، فى جذل وحشى ، وهو يقول :

- الجيل الخامس .

اتسعت عينا النحيل عن آخرهما ، وهبَّ من مقعده فى ثورة ، صائحًا :

- هل جننت ؟!

احتقن وجه الضخم ، وهو يهتف بكل الغضب :

- جننت ؟! كيف تجرؤ ؟!

صاح به النحيل فى غضب أكثر عنفًا :

- هذا هو التفسير الوحيد ، للحماقة الرهيبة ، التى تنوى ارتكابها .. إنك تسعى لكشف الجيل الخامس ، من تجربتنا الناجحة ، فى محاولة لمنع كشف أمر الجيل الثالث منها !! أى شىء هذا ، إن لم يكن الجنون بعينه ؟!

صاح الضخم فى ثورة :

- أنا أعرف ما أفعله .

صرخ النحيل :

- بل أنت تسعى فقط لإشباع تلك النزعة الدموية الموروثة فى أعماقك .. نفس النزعة التى هدم بها سلفك دولتنا .. كل ما تسعى إليه ذريتكما ، هو أن تراق الدماء أنهارًا بلا ثمن ..

صاح الضخم :

- أنا أسعى لحماية أسرار شعبنا ، وفرصته الأخيرة فى النهوض ، واستعادة أمجاده السابقة .

هتف النحيل :

- بل تسعى لتدمير تلك الفرصة الأخيرة بحماقة دموية شريرة .

عقد الضخم ساعديه المكتظين أمام صدره العريض ، وهو يقول فى صرامة :

- أنت لاتفهم شيئًا .. إننى أفعل ما أفعله مضطرًا ،

ولو جلست يومًا على مقعدى هذا ، فستفعل نفس ما أفعله الآن .

لوّح النحيل بذراعه كلها ، صارخًا :

- محال .

ثم مال نحوه بكل غضبه وعصبيته ، مستطردًا :

- أى شخص نصف ذكى ، يعلم أنه من الحماقة ، كل الحماقة ، أن يكشف المرء سلاحًا قويًا ، لحماية تجربة فاشلة .

عادت عينا الضخم تتألقان ، بذلك الجذل الوحشى ، وهو يقول :

- القانون يمنحنى الحق فى اتخاذ قرار كهذا .. أما بالنسبة لك .

صمت لحظة ، ليعود إلى مقعده ، قبل أن يضيف ، فى صرامة ساخرة :

- فاذهب إلى الجحيم .

احتقن وجه النحيل ، وهو يقول :

- أنا ؟! أنا أذهب إلى الجحيم ؟!

هزّ الضخم كتفيه المكتظين ، فى لامبالاة مدروسة ، وأشاح بوجهه ، قائلاً فى صرامة متشفية :

- هذا أفضل مكان ، يناسب مكانتك العلمية ، ومشاعرك المرهفة .

قالها ، وأطلق ضحكة عالية مجلجلة ، تضاعف معها احتقان وجه النحيل ، الذى تراجع فى غضب هادر ، قبل أن يقول فى صرامة شديدة :

- لن تفعلها .

قال الضخم فى سخرية :

- حقًا ؟! وكيف ستمنعنى أيها المتحذلق ؟!

أجابه النحيل ، وجسده ينتفض ، من فرط الانفعال :

- لدى وسيلة مضمونة .

أدار الضخم عينيه إليه ، فى حذر قلق ، فتابع بكل انفعاله :

- يكفى أن أبلغ اللجنة العسكرية العربية المشتركة ، بتجاوزاتك السرية ، فى مجال السعى لإنتاج أسلحة الدمار الشامل .

التقى حاجبا الضخم فى شدة ، وهو يستدير إليه ، قائلاً فى عصبية :

- أنت تعلم أننا كنا فى الماضى ، أكثر دولة تمتلك تلك الأسلحة ، فى المنطقة كلها .

هتف النحيل فى حدة :

- ولكننا خسرنا ، وانهزمنا ، ولم نعد تلك الدولة القوية المتعجرفة ، التى كنا عليها فى الماضى .

ثم مال نحو الضخم ، وأضاف فى غضب هادر :

- بفضل سلفك .

صرخ الضخم فجأة :

- إياك أن تكررها .

لوَّح النحيل بسبّابته فى وجهه ، صارخًا :

- سأكرّرها ألف مرة .. سأكرّرها كلما كرّرت أنت تلك الحماقات ، التى دمَّر هو بها مستقبلنا ، وأعادنا بوساطتها ألف عام إلى الوراء .

هبَّ الضخم من مقعده ، هاتفًا :

- ألف عام ؟! يا للسخافة ! لو عدت ألف عام إلى الوراء ، لما وجدت لنا كيانًا يُذكر .. إن دولتنا لم تنجح فى الاستمرار حتى لمائة عام كاملة .

صاح النحيل :

- الفضل لأمثالك .

صرخ الضخم فى وجهه بغتة :

- بل لأمثالك .

ثم سحب من درج مكتبه مسدسًا ليزريًا ، صوَّبه إلى النحيل فى انفعال ، مستطردًا :

- أمثالك ممن يتصوَّرون أنهم الأفضل دائمًا .. أمثالك الذين يتحدثون دومًا عن المثل ، والقيم ، وتلك الأمور السخيفة الأخرى ، التى لم يعد لها وجود ، فى عصرنا هذا .

تراجع النحيل فـى ذعـر ، وهـو يلـوّح بيـده أمامه ، هاتفًا :

ـ لقد .. لقد جننت بالفعل .. ماذا تنوى أن تفعل ؟!

أجابه الضخم فى صرامة وحشية :

ـ نفس ما فعله سلفى ، الذى تسخر منه دومًا .. سأزيح كل عقبة من طريقى .

صاح النحيل ، وهو يتراجع فى رعب :

ـ لا .. لايمكنك أن تفعلها .. لن تجد وسيلة لتبرير هذا أبدًا ، أمام القيادة السياسية أو الـ ....

قاطعه الضخم فى صرامة ، قائلاً :

ـ ومن يبالى بهذا ؟!

اتسعت عينا النحيل ، فـى رعب هـائل ، وهـو يصرخ :

ـ لا .. لا ..

ولكن سبَّابة الضخم ضغطت زناد المسدس ..

وانطلقت الأشعة تحصد النحيل بلا هوادة ..

وبلا رحمة ..

وفى شبق عجيب ، تطلَّع الضخم الأشيب إلى الدماء الغزيرة ، التى تفجَّرت من رأس النحيل ، الذى سقط جثة هامدة ، ثم عاد إلى مقعده ، وأعاد مسدسه الليزرى إلى درج مكتبه ، ثم مسح شفتيه بكمه ، قبل أن يتراجع ، ويضغط زر جهاز اتصال خاص ، على سطح مكتبه ، قائلاً فى صرامة :

ـ ابدأ فورًا عملية الجيل الخامس .

وأنهى الاتصال ، ليدير عينيه مرة أخرى إلى الدماء ، ويتطلَّع إليها فى شهوة عجيبة ..

شهوة وحشية ..

رهيبة ..

* * *

لم تكد صرخة (سلوى) و(نشوى) تنطلق ، عبر جهاز الاتصال ، حتى اندفع (نور) و(رمزى) يصعدان فى ذلك السلم المعدنى ، بأقصى سرعة ممكنة ، دون أن ينبس أحدهما ببنت شفة ..

وبأقصى سرعة أيضًا ، انطلقا يعدوان عبر المنجم ، على ضوء مصباحيهما ، وكل منهما يصرخ فى أعماقه ..

تُرى ماذا حدث ؟!

ماذا ؟!

ماذا ؟!

كاد عقلاهما يتفجران بالتساؤل والقلق ، وهما يعدوان ..

ويعدوان ..

ويعدوان ..

حتى مدخل المنجم القديم ..

وهناك ، ودون اتفاق مسبق ، توقفا ، وشخصا ببصريهما إلى المعسكر ، فى محاولة لفهم ماحدث ..

وكان المشهد رهيبًا بحق ..

ففى منتصف المكان تقريبًا ، وعلى بعد متر واحد من الخيمة المكيَّفة الكبيرة ، كانت هناك فجوة فى الأرض ..

فجوة توحى بأن شيئًا ما قد اندفع ، بمنتهى العنف والقوة ، من الداخل إلى الخارج .. وبكل ذعره وارتياعه ، هتف (رمزى) :

- يا إلهى ! يا إلهى !

فى نفس اللحظة ، التى انطلق فيها هتافه ، برزت (سلوى) ، من خلف الخيمة ، ولوَّحت بذراعها ، هاتفة :

- (نور) .. (رمزى) .. أسرعا بالله عليكما .

هتافها جعلهما يعدوان نحوها ، فصاحت بهما ملتاعة :

- الحاجز .. لا تنسيا الحاجز .

ضغط كل منهما زر حزامه ، وهما يثبان عبر الحاجز الكهرومغنطيسى الواقى ، و(نور) يهتف :

- ماذا حدث ؟! أين (نشوى) ؟!

برزت (نشوى) من داخل الخيمة ، وهى تقول فى توتر شديد :

- أنا هنا يا أبى .

نقل بصره بينهما فى انزعاج ، قبل أن يكرِّر ، محدِّقًا فى تلك الفجوة :

- ماذا حدث ؟!

هزَّت (نشوى) رأسها فى قوة ، مجيبة :

- أمر بشع يا أبى .. بشع للغاية .

سألها (رمزى) :

- أهى تلك الثعابين ؟!

أجابته (سلوى) فى انفعال :

- بل جثث ضحاياها .

هتف بكل دهشته :

- جثث من ؟!

أشارت بيدها إلى ما خلف الخيمة ، قائلة :

- الضحايا .

اندفع (نور) و(رمزى) معًا إلى حيث أشارت ، ثم اتسعت عيونهما معًا ، وهما يحدقان فى جثث الجيولوجيين الثلاثة ، التى بدت فى حالة مزرية للغاية ، مع ذلك اللون الأسود فى الوجوه ، وتلك البطون المنتفخة ، والأطراف المتورِّمة ..

ومن بين دموعها ، هتفت (نشوى) :

- كان أمرًا بشعًا للغاية يا أبى .. لقد تفجَّرت الأرض بغتة ، ثم راحت تقذف تلك الجثث ، على نحو لم أشهده ، حتى فى أكثر أفلام الرعب ، التى طالما بغضتها منذ حداثتى .

احتواها (رمزى) بين ذراعيه وراح يربِّت عليها فى حنان ، متمتمًا :

- لا بأس يا زوجتى العزيزة .. لا بأس .. أيًا كان ما حدث ، فقد انتهى الآن .

صاحت به (سلوى) فى عصبية :

- انتهى ؟! وكيف هذا ، وتلك الجثث تستقر هنا ؟!

أدارت (نشوى) عينيها إلى (نور) ، هاتفة بجسد ولسان مرتجفين :

- دعنا نتصل بالحوَّامة يا أبى .. دعنا نترك هذا المكان .

انعقد حاجبا (نور) فى شدة ، وهو يقول :

- إننا لم نتمَّ مهمتنا بعد .

صاحت (سلوى) :

- ومتى سنتمها ؟! بعد أن نلقى حتفنا بالفعل ؟!

أطلّ الغضب من عينى (نور) ، وانتفض جسده فى عنف ، وهو يهتف :

- ماذا أصابكم هذه المرة ؟! ماذا دهاكم جميعًا ؟!

إننا نخوض نفس ما خضناه من قبل .. أمر غامض مخيف ، نسعى لكشف ما يحيط به من غموض ، ونواجه فى سبيل ذلك عشرات المخاطر .. ماذا تغيَّر هذه المرة ؟! لماذا تبدون جميعًا مذعورين متخاذلين على هذا النحو ؟! لماذا ؟!

تبادل (رمزى) و(سلوى) و(نشوى) نظرة متوترة ، قبل أن يقول الأوَّل :

- ربما أن اختفاء (أكرم) الغامض قد أرهقنا ، خلال الأيام الماضية يا (نور) ، فلم نعد نحتمل المزيد .

صاح به (نور) فى حدة :

- وماذا لو أن (أكرم) قد لقى مصرعه ، ونحن نخوض إحدى عملياتنا العنيفة ؟! هل كنا سنعتزل بعدها ، ونتخاذل عن تلبية نداء الواجب ؟! لقد فقدنا (محمود) من قبل ، فى نهر الزمن(*) ، ولكن هذا لم يوقفنا .. لقد واصلنا عملنا ، وواصلنا قتالنا ، فى سبيل الحق والعدل والواجب .

(★) راجع قصة (الزمن = صفر) .. المغامرة رقم (١٠٠)

وشدّ قامته ، وهو يضيف بكل الحزم والصرامة :

- فى سبيل (مصر) ، وأمن (مصر) .

مرة أخرى ، تبادل الثلاثة نظرة متوترة ، وران على الكل صمت ثقيل مهيب ، قطعته (نشوى) ، وهى تتساءل فى توتر :

- وماذا عن تلك الجثث ؟!

أجابها (نور) فى صرامة :

- سنقوم بدفنها ، ونواصل مهمتنا ، وسنبلغ المسئولين بأمرها ، لنقل الرفات إلى المقابر فيما بعد .

قالت (سلوى) بصوت مرتجف :

- هل ستدفنها هنا ؟!

أجابها فى حزم :

- بالتأكيد .

كرّرت ، فى انزعاج شديد :

- هنا يا (نور) .

أجابها فى غضب عنيف :

- نعم .. هنا يا (سلوى) .

وغمغم (رمزى) :

- إنها مجرّد جثث يا (سلوى) .

هتفت :

- ولكنها ألقيت علينا ، من هذه الفجوة وسط الرمال ، وهذا ليس بالأمر الطبيعى .

غمغم (نور) :

- هذا صحيح .

قالها ، وأمسك بندقيته الليزرية فى تحفُز ، وهو يتجه نحو الفجوة ، و ....

ولم تكن فجوة بالمعنى الفعلى ، وإنما مجرّد حفرة فى الرمال ، يبلغ عمقها ما يقرب من ستة أمتار ، تغمر الرمال قاعها ، كأية حفرة أخرى ..

وكان هذا يزيد الأمر غموضًا ..

فلو أنها فجوة ، لربط (نور) بينها وبين تلك الثعابين الضخمة المزعومة ، وبينهم وبين القاء الجثث بهذا العنف ..

أما وهى مجردّ حفرة عميقة ، فكل شىء يبدو محيّرًا ..

وبحق ..

وفى اهتمام ، تطلّع (رمزى) إلى (نور) ، قبل أن يقول :

- هناك تساؤل ما يدور فى أعماقك يا (نور) .. أليس كذلك ؟!

أومأ (نور) برأسه ، قائلاً :

- بالتأكيد .

وصمت بضع لحظات ، حتى تصوّر البعض أنه سيكتفى بهذا القول ، إلا أنه لم يلبث أن تابع فى صرامة :

- إننى أتساءل : لماذا لم تحاول تلك الأشياء مهاجمتكما واقتناصكما كما فعلت من قبل ، مع أفراد البعثة (ت - ١٧) ؟!

تبادل الثلاثة نظرة أكثر توترًا ، قبل أن تقول (سلوى) :

- نعم .. لماذا ؟!

وهتفت (نشوى) :

- ولماذا ألقت إلينا بجثث ضحاياها ، بدلاً من هذا ؟!

التقط (نور) نفسًا عميقًا ، قبل أن يقول :

- ربما لأن الهدف لم يكن قتلكما ، وإنما إثارة رعبكما فحسب .

هتفت (سلوى) :

- ولماذا ؟!

أدار (نور) عينيه إلى مدخل المنجم ، وانعقد حاجباه فى صرامة ، وهو يجيب :

- لأن الهدف الحقيقى يكمن هناك .

سأله (رمزى) فى لهفة :

- وما هو ؟!

أجابه فى حزم :

ـ منعنا من الهبوط إلى البئر الآن .

هتف (رمزى) وهو يتراجع بحركة حادة :

ـ هذا مستحيل !

أشار (نور) بسبَّابته ، قائلاً بحزم أكبر :

ـ ولكن الهدف تحقَّق بالفعل .. أليس كذلك ؟!

مرة أخرى ، ران عليهما ذلك الصمت الثقيل الكئيب ، والذى قطعته (نشوى) أيضًا ، وهى تقول فى حذر :

ـ مازلت أرى أن ..

قاطعها (نور) ، بكل صرامة الدنيا :

ـ كلاَّ .

ثم أمسك سلاحه فى قوة ، مستطردًا :

ـ سأواصل هذه المهمة إلى النهاية ، حتى ولو اضطررت إلى البقاء ، والمضى فيها وحدى ، بعد عودتكم جميعًا إلى (القاهرة) .

قالها ، واندفع مبتعدًا عنهم ، وألقى جسده إلى جوار خيمته الخاصة الصغيرة ، ثم خفض عينيه ، وكل ذرة فى كيانه ترتجف انفعالاً ..

يا إلهى ! كم يفتقد (أكرم) ، فى مثل هذه الظروف ؟!

كم يتمنى لو أنه إلى جواره الآن ؟!

صحيح أنهما يختلفان ، فى كثير من الأمور ، ولكنهما يتفقان حتمًا على أمر واحد ..

عدم التردُّد لحظة واحدة ، عندما يتعلَّق الأمر بالواجب ..

وبأمن (مصر) ..

رباه ! كم يفتقده ؟!

كم ؟!

كم ؟!

انتزعته يد (رمزى) من أفكاره ، وهى تمسك كتفه فى رفق ، وصاحبها يقول :

ـ ألن تدفن تلك الجثث ؟!

تمتم (نور) ، دون أن يلتفت إليه :

- بالتأكيد .

جلس (رمزى) إلى جواره على الرمال ، وقال :

- هل تعلم لماذا نشعر جميعًا بالتوتر ، فى هذه العملية بالذات ؟!

غمغم (نور) :

- ظننت أن هذا يتعلّق بغياب (أكرم) .

وافقه (رمزى) بإيماءة من رأسه ، وقال :

- هذا أحد الأسباب الرئيسية ، ولكن هناك سبب نفسى آخر .

التفت إليه (نور) متسائلاً :

- وما هو ؟!

أشار (رمزى) بيده ، مجيبًا :

- إن الأمر يتعلّق بالثعابين .

أدرك على الفور ، مع ذلك الشعور الذى سرى فى كيانه ، ما يقصده (رمزى) بالضبط ، وقبل حتى أن يتابع هذا الأخير :

- هناك توتر ما ، وعلاقته غير مريحة دائمًا ، بين البشر والثعابين ، حتى إن بعض الديانات القديمة كانت ترمز إلى الشياطين ، أو إلى القوى الشريرة ، بثعبان ضخم مخيف .. بل وفى بعض المعتقدات ، كانوا يلقون المجرمين للثعابين أيضًا(*) .

تنهّد (نور) قائلاً :

- العقيدة المصرية القديمة اعتبرت الثعبان أحد الآلهة ، وأطلقوا عليه اسم (أرابيوس) ، واعتبروه حامى الملوك(**) .

أجابه (رمزى) :

- بالضبط ؛ لأنه يرهب الأعداء ، ويثير خوف الأشرار ،

(*) حقيقة ..

(**) حقيقة ..

لنفس السبب الذى ذكرته لك .. ذلك العداء النفسى، بين البشر والثعابين .

تنهَّد (نور) مرة أخرى ، وتطلَّع إلى مدخل المنجم القديم مباشرة ، وهو يقول :

- وها نحن أولاء نواجهها هنا .

نطقها ، وأعماقه تفتقد (أكرم) أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

* * *

لا فائدة ..

لا توجد وسيلة واحدة ، للفرار من هذا المصير البشع ..

هذا ما وقر فى أعماق (أكرم) ، وجسده يواصل الانطلاق ، بتلك السرعة الخرافية ، نحو قلب الضوء ، الذى تعاظم ، حتى احتلَّ مجال الرؤية كله ..

أما ذلك الشىء الشبيه باللهب فى أعماقه ، فمع الاقتراب ، بدا مختلفًا تمام الاختلاف ..

لم يكن لهبًا ، وإنما عاصفة ..

عاصفة زمنية عاتية ، تتضارب فى قلب الضوء فى عنف ، وينبعث منها ما يشبه الصواعق ، على نحو متصل ، ودون أدنى صوت ..

وكان هذا يؤكِّد ما شعر به ..

إن نهايته تكمن فى قلب الضوء ..

فى قلب العاصفة ..

وعلى الرغم من فشل كل محاولاته السابقة ، عاد يقاوم فى استماتة ..

ويقاوم ..

ويقاوم ..

لم يكن الاستسلام للموت أمرًا يتناسب مع شخصيته ..

أو مع طبيعته المتمرِّدة القوية ..

لذا فقد أصرَّ على المقاومة ..

وواصل جسده الاندفاع ، عبر نهر الزمن ..

بمنتهى القوة ..

والسرعة ..

والعنف ..

ولم تمض وحدات زمنية قليلة ، حتى كان الضوء يغمر كل شىء من حوله ، والعاصفة الزمنية فى أعماقه تبدو رهيبة ..

رهيبة ..

رهيبة ..

ولأوَّل مرة ، منذ استعاد ذاته ، صرخ (أكرم) :

ـ فليكن يا نهر الزمن .. خذ حياتى لو أردت .

ثم انعقد حاجباه ، وهو يضيف فى صرامة :

ـ ولكننى سألقى مصرعى كرجل .

أغلق عينيه ، وترك جسده يسترخى ، وفرد ذراعيه عن آخرهما إلى جواره ، وارتسمت على ملامحه كل صرامة الدنيا ، على الرغم من كل ما يحيط به ..

مرة أخرى ، حكمته طبيعته المتمرِّدة ، وشخصيته العنيدة القوية ..

لقد رفض الاستسلام ..

حتى للموت نفسه ..

واتخذ آخر قرار فى حياته ..

قرار بأن يموت كما عاش ..

كرجل قوى ..

والعجيب أن قراره هذا قد ملأ نفسه بهدوء عجيب ، وهو يهوى ..

ويهوى ..

ويهوى ..

إلى أعماق عاصفة الزمن ..

وأعماق الموت ..

* * *

٦ ـ الحصار ..

مسح (نور) ذلك العرق الغزير ، الذى غمر وجهه ، بعد أن انتهى مع (رمزى) ، من دفن جثث الضحايا الجيولوجيين الثلاثة ، فى حين هتف (رمزى) ، وهو يلقى جسده ، أرضًا ، فى إرهاق واضح :

ـ يا إلهى ! لم يخطر ببالى قط ، عندما انضممت إلى المخابرات العلمية المصرية ، أن الأمر سينتهى بى إلى حفر القبور ودفن الجثث .

لم يعلِّق (نور) على عبارته ، وهو يدير رأسه ، ليتطلَّع إلى مدخل المنجم القديم ، وكل خلية من خلايا مخه تبحث عن تفسير ، لكل ما يدور حوله ..

هناك شىء ما فى أعماق المنجم حتمًا ..

شىء يشبه الثعابين ..

ولكنه ليس كذلك حتمًا ..

لم يعلّق (نور) على عبارته ، وهو يدير رأسه ، ليتطلع إلى مدخل المنجم القديم ..

فالثعابين لا تدفن ضحاياها فى الرمال ، بعد أن تنفث فيهم سمها ..

إنها تلتهمهم فحسب ..

ما من حيوان واحد ، فى الفصائل المعروفة ، يمكن أن يقتل لمجرَّد القتل ..

فقط الإنسان هو من يفعل هذا ..

الإنسان المريض ..

والمجنون ..

ولكن هناك كائنات عاقلة ، تدير كل هذا ..

كائنات صنعت كومة الأحجار الزائفة ؛ لتخفى مدخل البئر ، الذى تستخدمه طوال الوقت ..

كائنات تدرك كيف تتعامل مع خصومها ، وفقًا لدرجات ذكائهم ، وبراعتهم فى التعامل مع الأمور الغامضة ..

وهذا لا يمكن أن ينطبق على الثعابين ..

اللهم إلا ثعابين البشر ..

ومرة أخرى ، قاده هذا إلى التفكير فيهم ..

فى الإسرائيليين ..

والثعابين ..

شىء ما ، فى أعمق أعماق عقله ، كان يربط بين هؤلاء وأولئك .. شىء قوى ، وإن لم يحدّد موضعه وطبيعته بعد ..

وفى اهتمام ، التفت إلى ابنته ، قائلاً :

ـ ما آخر نتائج الفحوص ؟!

أسبل (رمزى) جفنيه فى تهالك ، وهو يغمغم :

ـ أما زال باستطاعتك أن تواصل يا (نور) ؟!

قالت (نشوى) ، دون أن تلتفت إلى عبارة زوجها :

ـ ذلك الشىء المتحرك ، الذى التقطت آلة التصوير جزءًا من جسمه ، لا يشبه أى كائن حى معروف ، على وجه الأرض ، ولكنه أقرب ما يكون إلى الثعابين .. ربما كان أحد الأنواع النادرة منها ، أو أحد الأنواع التى لم يتم تسجيلها بعد .

سألها (نور) :

ـ هل تعتقدين أننا ربما نحتاج إلى خبير فى أنواع الثعابين ؟!

أشارت إلى جهاز الكمبيوتر الخاص بها ، قائلة :

ـ لو أن لديه ما يضيفه إلى هذا .

بدت عليه علامات التفكير العميق ، فأشارت (سلوى) بيدها ، قائلة فى إرهاق متوتر :

ـ بالنسبة لأصوات الفحيح .. هناك أمر غير طبيعى بشأنها .

التفت إليها (نور) ، قائلاً :

ـ إنها لم تصدر من كائن طبيعى .. أليس كذلك ؟!

ارتفع حاجباها فى دهشة بالغة ، وهمَّت بقول شىء ما ، ثم لم تلبث أن عزفت عن هذا ، وتمتمت :

ـ لن أسألك كيف استنتجت هذا ، حتى لا يتكرَّر الموقف ، على نحو ممل .

عاد (نور) يتطلّع إلى مدخل المنجم، وهو يقول فى حزم:

- هناك شىء ما، يحاول بث الرعب فى قلوبنا، حتى يمنعنا من فحص ما يحدث فى الداخل.

ثم انعقد حاجباه، وهو يلتقط سلاحه، مستطردًا:

- كان ينبغى أن نواصل ما بدأناه.

زفر (رمزى) فى توتر، وضرب الهواء بيده، وهو يهتف فى تهالك معترض:

- كلاَّ يا (نور).. ليس مرة أخرى.. إننا بشر، وكل بشرى يحتاج إلى قدر من الراحة، حتى يستعيد قواه على الأقل.

غمغم (نور) فى توتر:

- وهذا ما يستغلونه جيّدًا..

لم يكد يتمّ عبارته، حتى انطلق أزيز رفيع، من جهاز (سلوى)، التى انتفض جسدها فى عنف، وهى تهتف:

- ربّاه!

وثبت إليها (نشوى)، فى حين سألها (نور) فى توتر:

- ماذا هناك؟!

أشارت بسبَّابة مرتجفة إلى الأرض، قائلة:

- شىء ما يتحرَّك تحتنا.

تحفَّز (نور) ببندقيته الليزرية، وهو يكرِّر فى توتر:

- تحتنا؟!

قفز (رمزى) واقفًا على قدميه، وكأنما يخشى أن يجذبه ذلك الشىء تحت الرمال، وراح يتلفَّت حوله فى عصبية، فى حين انعقد حاجبا (نور)، وهو يتجه فى حذر متحفز، نحو تلك الحفرة الواسعة، مغمغمًا:

- أين بالضبط؟!

هزَّت (سلوى) رأسها، مجيبة فى عصبية:

- لا يمكن تحديد موقعها بدقة، فقد حدثت الحركة لجزء من الثانية، ثم توقفت لسبب ما.

التقط (نور) نفسًا عميقًا ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ الأزيز .

التفت إليه الجميع فى تساؤل ، فتابع فى صرامة :

ـ لقد التقط أزيز جهازك ، وأدرك أنه يمكننا رصده .

بدا توتر شديد على وجه (نشوى) ، وتلفت زوجها (رمزى) حوله مرة أخرى ، فى حين هتفت (سلوى) فى شىء من الذعر :

ـ ما الذى تقصده بالضبط يا (نور) ؟!

أجابها فى حزم صارم :

ـ خصمنا .

ثم صوب بندقيته الليزرية إلى أعماق الحفرة ، مكملاً :

ـ إنه هنا .

هتفت (سلوى) ، مكررة فى ذعر :

ـ هنا ؟!!

أومأ برأسه إيجابًا ، وهو يواصل تصويب بندقيته إلى أعماق الحفرة ، قائلاً فى بطء حذر :

ـ الأرجح أنه هنا ، منذ ألقى تلك الجثث ..

واكتسب صوته صرامة شديدة ، وهو يضيف :

ـ ليدرس ردود أفعالنا .

ومع آخر حروف عبارته ، ضغط زناد بندقيته الليزرية ..

وانطلقت أشعة الليزر القوية ..

وانفجرت فى قاع الحفرة ..

ومع انفجارها ارتجت الأرض تحت أقدامهم فى عنف ، فصرخت (نشوى) ، وهى تحاول التشبث بأى شىء :

ـ رباه ! لقد كان هنا بالفعل ..

ومع طلقة (نور) الليزرية الثانية ، تفجرت نافورة من الدم ، وتحرك شىء ما فى سرعة وعنف ، تحت الرمال ..

ومع حركته واندفاعته ، ارتجّت الأرض بعنف أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

وانطلق من أعماق المناجم فحيح قوى ..

فحيح ألف ألف ثعبان ..

ومع صعوبة حفاظه على توازنه ، صاح (نور) :

ـ أغلقوا الدائرة الكهرومغنطيسية من أسفل .

صرخت (سلوى) :

ـ لا .. لاتفعل ..

ولكنه اندفع نحو الجهاز المتصل بالحاجز الواقى ، وراح يضغط أزراره فى سرعة ، فوثبت (سلوى) تمسك يده ، قائلة :

ـ لا يا (نور) .. دعه يخرج من الدائرة .. دعه يبتعد بالله عليك .

كان ذلك الشىء ، الذى يتحرّك تحت أقدامهما ، يندفع بسرعة نحو الحاجز الواقى ، فدفعها (نور) جانبًا ، وهو يهتف :

ـ ابتعدى يا (سلوى) .. ربما كانت هذه فرصتنا الوحيدة .

ولكنها تشبثت بيده فى استماتة ، صارخة :

ـ لا يا (نور) .. لا ..

ومع آخر حروف صرختها ، تجاوز ذلك الشىء نطاق الحاجز الواقى ، من تحت الرمال ، واتجه مباشرة نحو المنجم ، وغاب داخله ، دون أن يبرز إلى السطح لحظة واحدة ..

ومرة أخرى ، انطلق ذلك الفحيح ..

وارتجفت أجسادهم فى عنف ، وسرت فيها قشعريرة كالثلج ، عندما جاوبه أكثر من فحيح آخر ..

من كل مكان حولهم ..

بلا استثناء ..

* * *

فى صعوبة بالغة ، مع حجمه الضخم ، وكرشه البارز ، وكمحاولة لإخفاء مهابة زائفة على مظهره ، عقد الضخم كفيه خلف ظهره ، وهو يسير أمام ثلاثة من الشبان الأقوياء البنية ، الذين وقفوا فى صف واحد ، وعلى نحو عسكرى صارم ، وتطلع هو إليهم فى إعجاب مزهو ، قبل أن يتوقف فجأة ، قائلاً :

- أظنكم تعلمون أنكم تختلفون ، عن أى مخلوق فى هذا العالم .

ظلّ الثلاثة على وقفتهم العسكرية الصارمة الصامتة ، دون أن ينبس أحدهم ببنت شفة ، وكأنما يدركون جيدًا أنه ليس المطلوب منهم إجابة السؤال ، فى حين تابع هو فى صرامة منتشية :

- أنتم نتاج تجربة طويلة المدى ، بدأت فى أثناء احتلالنا لأرض (سيناء) ، فى سبعينات القرن العشرين .. تجربة اقترحها عقل أحد علمائنا ، وتطوّرت عبر هذه السنين ، حتى انتهت إليكم ، أنتم أبناء الجيل الخامس

من سلاحنا السرى ، والنواة لجيش جديد خارق ، سيصبح يومًا أقوى جيوش العالم ، وأكثرها إثارة للفزع والخوف .

وتألقت عيناه على نحو مخيف ، وهو يضيف :

- وعندئذ ، ستحين اللحظة الحاسمة .. لحظة نهوض دولتنا من كبوتها ، وعودتها لتحتلّ مكانتها الطبيعية ، على قمة العالم .

توقف لحظة ليلهث فى عنف ، من فرط الانفعال ، والوضع الصعب الذى يتخذه ، والذى لا يتناسب قط مع طبيعة جسده ، مما اضطره إلى حل كفيه من خلف ظهره ، فتظاهر بالتلويح بقبضته ، لإخفاء ما أصابه ، وهو يقول :

- ولقد حانت لحظة تجربة قوتكم .

ظلّ الثلاثة صامتين ، وهو يتحرك أمامهم بضع لحظات فى صمت ، محاولاً التقاط أنفاسه ، والسيطرة على أعصابه ، قبل أن يتابع :

- اليوم ، سيتم إرسالكم إلى حيث بدأت التجربة .

وتوقَّف ليواجه ثلاثتهم ، مضيفًا فى حماسة :

- إلى (سيناء) .

ودون سبب منطقى ، انطلقت من حلقه ضحكة وحشية عجيبة ، مسح بعدها شفتيه بكمه ، وكأنما يزيل الزبد الحيوانى ، الذى سال مع كلماته ، ثم تابع :

- هناك ، وعند منجم مهجور قديم ، فى منطقة (جبل الطور) ، يقبع فريق علمى ، من المخابرات العلمية المصرية .. فريق يعتبره الكل أقوى فريق علمى ، فى العالم كله ، وخاصة بعد انجازهم القوى ، فى تخليص الأرض من الغزو الفضائى ، وإعادتها إلى حضارتها السابقة .

وضاقت عيناه ، وهو يكمل فى صرامة :

- ومهمتكم أن تسحقوا ذلك الفريق سحقًا .

تألَّقت عيون الشبان الثلاثة ، مع عبارته الأخيرة ، التى بدت وكأنها قد مسَّت تلك الوحشية الكامنة فى أعمق أعماق خلاياهم ، فابتسم هو فى إعجاب مزهو ، وعاد يسير أمامهم ، فخورًا بسيطرته على أمثالهم ، وهو يقول :

- إنهم على وشك كشف تجربة الجيل الثالث منكم ، والذى لم يقم أحد عملائنا الحمقى بالتخلص منه ، عندما كان يتحتم هذا ، ونحن لانريد منهم أن يكشفوا شيئًا من هذا ، لذا فمهمتكم مزدوجة ، ولن تقتصر على سحق ذلك الفريق فحسب ، وإنما ستمتدّ إلى التخلُّص من كل أثر لمجموعة الجيل الثالث ، ومحوه من الوجود تمامًا .

وتوقَّف مرة أخرى ، ليسأل فى صرامة :

- هل فهمتم طبيعة مهمتكم ؟!

أجابه الثلاثة فى آن واحد :

- بالتأكيد يا سيِّدى .

وتألَّقت عيناه هو هذه المرة ..

تألّقتا بجذل وحشى رهيب ، وهو يتطلّع مباشرة إلى أفواههم ، وهم ينطقون عبارتهم ..

وبالتحديد إلى أنيابهم ..

أنيابهم الطويلة ..

الحـادة ..

القاتلة ..

* * *

« إنهم يحيطون بنا .. »

هتفت (سلوى) بالعبارة فى رعب هائل ، وكل خلية فى جسدها ترتجف فى رعب ، وعيناها تدوران فيما حولها ، فى عصبية بالغة ، فى حين تراجعت (نشوى) ، وانكمشت فى فزع ، فضمّها زوجها إلى صدره ، قائلاً :

ـ اهدئى يا حبيبتى .. لن نسمح لهم بإيذائنا أبدًا .

أما (نور) ، فانعقد حاجباه فى صرامة ، وهو يقول :

ـ بالتأكيد .

ثم تحرك فى سرعة ، مستطردًا :

ـ وعلينا أن نعمل فورًا ، وبأقصى سرعة ؛ لتحويل هذا القول إلى حقيقة ملموسة .

ضغط أزرار جهاز التحكّم فى الحاجز الكهرومغنطيسى الواقى ، وهو يضيف :

ـ فليرتد كل منكم الزى الخاص ، والخوذة الواقية ، حتى لا تنفث تلك الأشياء سمومها فى وجوهنا .. أسرعوا .

مع ضغطة الأزرار ، اتصلت أعمدة الحاجز الواقى بعضها بالبعض ، أسفل الرمال ، لتصنع واقيًا تحت أرضى ، يمنع تسلّل أى ثعبان آخر من أسفل ، فى حين راح (رمزى) و(سلوى) و(نشوى) يرتدون تلك الأزياء التأمينية الخاصة ، وسرعان ما لحق بهم (نور) ، و(رمزى) يتساءل فى توتر :

ـ ولكن لماذا لم يهاجمونا مباشرة ؟!

أجابه (نور) فى حزم :

ـ شىء ما يمنعهم حتمًا ..

قالت (سلوى) فى توتر :

ـ وما ذلك الشىء بالضبط ؟! إن وضعنا لا يختلف كثيرًا عن وضع البعثة (ت ـ ١٧) ، التى هاجموها فى عنف ، وقتلوا كل أفرادها بلا رحمة ، واستولوا على كل أجهزتها أيضًا !!

انعقد حاجبا (نور) فى شدة ، وهو يبحث عن جوانب لسؤالها ، قبل أن يقول فى صرامة :

ـ هناك شىء ما ، فى أعماق البئر .

قالت (نشوى) فى توتر :

ـ أظن أنه من الأفضل أن نطلب بعض الإمدادات العسكرية ، أو الـ ....

قاطعها (نور) فى حزم :

ـ لن يكون هناك وقت لهذا .

عبارته الحازمة هذه أرجفت قلوبهم ، فهتفت (سلوى):

ـ (نور) .. لا تقل : إنك تنوى أن ....

قاطعها (نور) أيضًا ، وهو يقول ، بمنتهى الحزم والصرامة :

ـ لابد أن نعود إلى هناك .

وعلى الرغم من معرفته للجواب ، هتف (رمزى) مستنكرًا :

ـ إلى أين ؟!

أشار (نور) بيده إلى مدخل المنجم فى حزم ، وهو يقول :

ـ إلى تلك البئر .

هتفت (سلوى) :

ـ مستحيل !

صاح (نور) فى حدة :

ـ ألم تفهموا بعد ما يحدث هنا ؟! تلك الأشياء ليست ثعابين حقيقية إنها كائنات عاقلة مفكِّرة .. كائنات استولت على أجهزة البعثة (ت ـ ١٧) ؛ للاستعانة بها فى أمر ما ، يتم إعداده ، فى الأعماق هناك .

وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يضيف :

ـ أمر قد يكون من الخطورة ، بحيث يهدد أمن وسلامة الوطن .

ثم اكتسى صوته بصرامة قوية ، مع استطرادته :

ـ وربما العالم أجمع .

أمسكت (سلوى) يده فى قوة ، قائلة فى عصبية :

ـ ربما تكون على حق يا (نور) ، ولكن انتظر وصول الإمدادات العسكرية .

هزَّ رأسه نفيًا فى قوة ، قائلاً :

ـ خطأ .. محاولتهم لإضاعة الوقت ، تعنى أهمية وخطورة كل دقيقة تمضى .

ثم التقط سلاحه ، مضيفًا فى صرامة :

ـ لابد أن نتحرك على الفور .

صرخت (سلوى) :

ـ لا .. لن أسمح لك .

انتفض جسده من فرط الغضب ، وهو يهتف :

ـ تسمحى لى ؟! إننى القائد هنا يا (سلوى) .

صاحت :

ـ وأنت زوجى أيضًا .

قال بمنتهى الغضب :

ـ وأسلوبك هذا يعنى أن وجودنا فى فريق واحد هو خطأ فادح ، كما افترضت تقارير المتابعة الأمنية .

تراجعت ، قائلة فى صوت مرير مرتجف :

ـ (نور) .. أرجوك .

أجابها فى صرامة ، وهو يلتقط حزامًا متفجرًا ، ويحيط به وسطه :

ـ قومى بعملك فحسب أيتها الخبيرة .

امتقع وجهها بشدة ، وقد أدركت استحالة اعتراض طريقه ، فتمتمت فى يأس :

ـ أرجوك .

تجاهل قولها تمامًا ، وهو يتجه نحو الحاجز الكهرومغنطيسى الواقى مباشرة ، فالتقط (رمزى) سلاحه بدوره ، وهو يهتف :

ـ سأتبعك .

شعرت (نشوى) بقشعريرة باردة تسرى فى جسدها ، وهى تتطلع إلى والدها وزوجها ، وهما يتجاوزان الحاجز الواقى ، بفضل ذلك الجهاز الخاص ، المثبت فى حزاميهما ، فى طريقهما لمواجهة خطر غامض مجهول رهيب ، ثم أمسكت يد أمها ، مغمغمة :

ـ لافائدة .. لاشىء يمكن أن يمنعهما .

ارتجفت (سلوى) ، وهى تقول فى مرارة :

ـ أعلم هذا .

ثم تملصت من ابنتها ، واندفعت نحو أجهزتها ، قائلة :

ـ أفضل مانفعله إذن هو أن نعاونهما .. وبأقصى طاقتنا .

ألقت (نشوى) نظرة أخرى على (نور) و(رمزى) اللذين بلغا مدخل المنجم القديم بالفعل ، قبل أن تلحق بأمها ، قائلة :

ـ بالتأكيد .

ومع آخر حروف كلماتها ، انبعث ذلك الفحيح القوى مرة أخرى ، من كل مكان حولهم ..

وارتجف جسدا (سلوى) و(نشوى) مرة أخرى فى عنف ، فى حين توقف (نور) و(رمزى) عند مدخل المنجم ، وتلفتا حولهما فى توتر ، وغمغم (رمزى) :

ـ أمازلت تصرّ على العودة ؟!

أجابه (نور) بمنتهى الحزم والصرامة :

ـ بكل تأكيد .

سأله (رمزى) ، وهو يشير إلى حزام المتفجرات :

ـ ولماذا هذا ؟!

أجابه (نور) بعد لحظة من الصمت :

ـ ربما احتاج الأمر إلى إيقاف مايحدث هنا .

وصمت لحظة أخرى ، ثم أضاف بصرامة :

ـ وبأى ثمن .

قالها ، وعبر المدخل إلى المنجم القديم ..

إلى الخطر ..

كل الخطر ..

* * *

فجـأة شعر (أكرم) بتلك اليد القوية ، التى قبضت على معصمه ؛ لتوقف انهيار جسده ، فى قلب تلك العاصمة الزمنية الرهيبة ..

ومع تلك الانتفاضة ، التى سرت فى كيانه كله ، فتح (أكرم) عينيه عن آخرهما ، وحدَّق فى صاحب تلك اليد ، قبل أن يهتف ، بكل ما اعتمل فى أعماقه من انفعالات شتى ، يصعب حصرها فى كتاب كامل :

ـ مستحيل !

منحه صاحب اليد ابتسامة هادئة ، وهو يقول :

ـ تصوَّرت أنك بحاجة إلىَّ ، فى موقفك هذا .

ظلَّ (أكرم) يحدِّق فيه بذهول ، وشعر ، ولأوَّل مرة ، بأن جسده قد توقَّف عن الانطلاق والاندفاع ، فانتزع نفسه من انفعالاته الجارفة ، وهو يهتف :

ـ (محمود) ؟! يا إلهى ! هل عدت[*] ؟!

اتسعت ابتسامة (محمود) ، وهو يهزّ رأسه نفيًا ، مجيبًا :

ـ بل أنت الذى أتيت يا صديقى .

ثم أشار بيده الحرة لما حوله ، مضيفًا :

ـ هذا عالمى الحالى .

هتف (أكرم) :

ـ ولكن ...

استوقفه (محمود) بإشارة من يده ، قائلاً :

ليس الآن يا صديقى .. سنناقش كل شىء فيما بعد .. المهم أن نبتعد الآن بأقصى سرعة ، فلا أنت ولا أنا ، يمكننا البقاء هنا طويلاً .

(*) راجع قصة (الزمن ـ صفر) .. المغامرة رقم (١٠٠)

قالها ، ثم اندفع فجأة ، فى الاتجاه المعاكس لتلك الدوّامة الزمنية الرهيبة ، وأصابعه مازالت تقبض على معصم (أكرم) ، الذى شعر بجسده يعود إلى الاندفاع والانطلاق مرة أخرى ، فى الاتجاه العكسى ..

وبسرعة أكبر ..

كثيرًا ..

وبكل حيرته وانفعاله ، راح يتطلّع إلى (محمود) ، وعقله يحمل عشرات التساؤلات ..

إنه يعهده ضعيفًا بسيطًا ، فمن أين اكتسب هذه القوة ، التى تبدو واضحة فى أصابعه ، وفى قدرته على جذبه ، والانطلاق به بهذه السرعة الخارقة ، عبر نهر الزمن ؟!

ما الذى أصابه ؟!

وما الذى يحدث هنا ؟!

فى نهر الزمن ؟!

ظلّت تلك الأسئلة حائرة فى ذهنه ، و(محمود) ينطلق به ..

وينطلق ..

وينطلق ..

حتى ظهرت بقعة أخرى بعيدة ..

بقعة هى مجموعة من الألوان ، الممتزجة فى جمال رائع ، وتدور حول نفسها فى نعومة مدهشة ، لتمتزج وتتفرّق ، وتتقارب وتتباعد ، على نحو يمكنك أن تتطلّع إليه إلى الأبد ، دون أن يراودك الملل لحظة واحدة ..

واتجه (محمود) به نحو تلك البقعة مباشرة ..

وبنفس السرعة الخارقة ..

ولم يعترض (أكرم) ، أو يسأل (محمود) حتى ، إلى أين يتجه به ..

فطى عكس ماحدث ، وما شعر به ، عندما وقع بصره على تلك العاصفة الزمنية الرهيبة ، راوده شعور بالارتياح الجارف ، وهو يتجه نحو بقعة الألوان تلك ..

واسترخى جسده كله ، فى شىء من الاستمتاع ..

وبسرعة ، اقتربت بقعة الألوان ، وكبرت ، وتعاظمت ، ثم لم تلبث أن احتلَّت مجال الرؤية كله ، و(محمود) يواصل الاندفاع به نحوها ..

ثم فجأة ، اخترقاها ..

شعور عجيب ذلك الذى ملأ كيانه ، وهما يعبران تلك الألوان ..

لقد خفق قلبه فى عنف ، وانطلقت من حلقه شهقة قوية ، والتقطت رئتاه كمية هائلة من الهواء ، قبل أن يسرى الارتياح فى كيانه كله ، ويتوقَّف جسده دفعة واحدة ..

كان يسبح ، فيما يشبه منطقة انعدام وزن . ولا يحيط به سوى فراغ هائل ، وعلى الرغم من هذا فقد شعر بمزيج من الارتياح والاسترخاء ، جعله يهتف :

- ربّاه ! هذا رائع .. أين نحن بالضبط ؟!

أجابه (محمود) فى هدوء :

- فى عالمى .

استدار إليه فى دهشة ، قائلاً :

- عالمك .

أشار (محمود) لما حوله ، وهو يقول :

- هذا هو العالم الوحيد ، الذى أعرفه الآن ياصديقى .

أدار (أكرم) عينيه فيما حوله ، دون أن يلمح أى شىء ، فقال :

- لا أحد يمكنه أن يبقى هنا للأبد .

قال (محمود) :

- يبدو أنه ليس أمامى خيار آخر .

شعر (أكرم) بالإشفاق نحوه ، وهو يتطلّع إليه بعض الوقت ، فابتسم (محمود) ، قائلاً :

- ولكن هذا لا يزعجنى كثيرًا .

ابتسم (أكرم) ، وهو يقول :

- لن يمكنك أن تتصوّر ، كم تسعدنى رؤيتك ثانية .

أمسك (محمود) كتفيه ، قائلاً :

- أنا أيضًا سعيد برؤيتك يا صديقى .

ثم غمز بعينه ، مستطردًا :

- وأنا أعلم ما فعلته .

ردّد (أكرم) فى حذر :

- تعلم ؟!

أومأ (محمود) برأسه إيجابًا ، وقال :

- فى عالمى هذا ، يمكنك أن ترى كل شىء ، وكل شخص .

وصمت لحظة ، ثم أضاف :

- وكل زمن .

هتف (أكرم) مبهورًا :

- حقًّا ؟!

أومأ (محمود) برأسه إيجابًا مرة أخرى ، وهو يقول :

لابد أن تكون هناك مزية ما ، فى أى شىء ، مهما بلغت مساوئه يا صديقى .

وافقه (أكرم) بإيمائة من رأسه ، قائلاً :

- إذن فأنت تعلم بأمر ذلك الاضطراب الزمنى ، الذى تسبّب فى انتقالى إلى هنا .

أجابه (محمود) :

ـ إنك لم تنتقل إلى هنا يا صديقى ، وإنما إلى جزء بالغ الخطورة من تفرعات نهر الزمن .. جزء كان يمكن أن يقودك إلى الهلاك .

ابتسم (أكرم) ، وربّت على كتفه ، قائلاً :

ـ لولا وصولك فى الوقت المناسب يا صديقى .

تنهّد (محمود) ، وهو يقول :

ـ كان توفيقًا من اللّه (سبحانه وتعالى) ؛ فعندما تجاوزت علمى لإنقاذك ، كانت فرصة العودة محدودة للغاية .

حدّق (أكرم) فيه ، هاتفًا :

ـ ربّاه ! هل جازفت بوجودك لإنقاذى ؟!

ابتسم (محمود) فى حرج ، مغمغمًا :

ـ لو انعكست الأدوار ، لما تردّدت أنت فى القيام بالمثل .. أليس كذلك ؟!

ارتفع حاجبا (أكرم) فى تأثُّر بالغ ، وعاد يمسك كتفى (محمود) ، قائلاً :

ـ يا إلهى .. لست أدرى ماذا أقول ؟!

أجابه (محمود) فى حزم :

ـ لاتقل شيئًا ، وحاول أن تتعاون معى ، للبحث عن وسيلة ما ، لمنع ما سيحدث للرفاق ، فى مستقبلهم القريب .

ارتجف جسد (أكرم) ، وهو يسأله :

ـ وماذا سيحدث لهم ؟!

هزّ (محمود) رأسه ، قائلاً :

ـ أمر بشع .

ثم مرّر يده فى الفراغ ، فتموّج جزء منه ، قبل أن يتحوّل فجأة إلى ما يشبه شاشة رصد ثلاثية الأبعاد ، بدت عليها صورة أفراد الفريق ، و ....

واتسعت عينا (أكرم) عن آخرهما فى ارتياع تام ..

فما رآه أمامه كان رهيبًا وبشعًا ..

إلى أقصى حد .

* * *

٧ ـ كل الخطر ..

« كومة الأحجار الزائفة ، عادت إلى موضعها .. »

غمغم (رمزى) بالعبارة فى توتر ، وضوء مصباحه يغمر كومة الأحجار الزائفة ، التى استقرَّت مرة أخرى ، فوق فتحة البئر ، فقال (نور) فى حزم :

ـ كنت أعلم أنهم سيفعلون هذا .

أوصل جهاز الاتصال بالصخرة ، وهو يقول :

ـ (نشوى) .. إنها مهمتك .

لم تمض ثانية واحدة ، حتى تحرَّكت كومة الأحجار الزائفة ، لتكشف مدخل البئر ، مع انبعاث صوت (نشوى) ، عبر جهاز الاتصال ، وهى تقول :

ـ أبى .. احترسا جيدًا هذه المرة ، فمن الواضح أن تلك الأشياء قد توقَّعت عودتكما .

أجابها (نور) فى حزم :

ـ أعلم هذا .

لم يكد يتمّ عبارته ، حتى هتفت (سلوى) فى ذعر ، عبر جهاز الاتصال :

ـ (نور) .. هناك شىء يتحرّك فى المنجم .

انزعج (رمزى) بشدة ، من هتافها هذا ، ولكن العجيب أن (نور) ظلّ هادئًا ، وهو يسألها فى حزم :

ـ هل تسجل أجهزتكما أى انبعاث حرارى ؟!

أجابته فى سرعة :

ـ كلاً .

قال فى صرامة :

ـ تجاهلى كل هذا إذن .

حدّق فيه (رمزى) بدهشة بالغة ، هاتفًا :

ـ (نور) .. زوجتك تخبرنا أنه هناك شىء ما يتحرّك حولنا .

أجابه (نور) فى حزم :

ـ تجاهله يا صديقى .. إنه لاشىء .

حدّق فيه (رمزى) بدهشة أكبر ، عندما بدأ يهبط عبر ذلك السلم المعدنىِ ، إلى أعماق البئر ، ثم لم يلبث أن لحق به ، قائلاً فى عصبية :

ـ ما الذى يعنيه برودك هذا بالضبط ؟!

أجابه (نور) بلهجة حاسمة :

ـ يعنى أننى قد فهمت اللعبة كلها .

هتف (رمزى) ، وهو يهبط خلفه فى حذر :

ـ أية لعبة ؟!

قبل أن يجيبه (نور) ، انبعث فجأة ذلك الفحيح الرهيب ، فانتفض جسد (رمزى) ، هاتفًا فى ذعر :

ـ يا إلهى ! يا إلهى !

سأل (نور) زوجته ، عبر جهاز الاتصال ، وهو يواصل الهبوط :

ـ هل سجلت هذا ؟!

أجابته فى توتر :

ـ نعم .

قال فى حزم :

ـ افحصى الذبذبة جيدًا ، وأخبرينى .. هل انبعث ذلك الفحيح من مصدر طبيعى أم صناعى .

صمتت لحظة ، ثم أجابت :

ـ صناعى يا (نور) .

واصل هبوطه فى سرعة ، وهو يقول :

ـ هذا يثبت أننى على حق .

هتف به (رمزى) ، وهو يتطلَّع فى قلق إلى تلك الفجوة المستديرة ، فى منتصف جدار البئر :

ـ ماذا يحدث بالضبط يا (نور) ؟!

أجابه (نور) فى حزم :

ـ يحدث أن بعضهم يلعب لعبة كبيرة ياصديقى ..

لعبة الهدف منها إثارة رعبنا وخوفنا ، وذعر كل من يقترب من هذا المنجم ، فى محاولة لإخفاء ما يدور فى أعماقه .

سأله (رمزى) فى دهشة :

ـ وماذا عن ذلك الشىء ، الذى أطلقت عليه النار ، تحت رمال المعسكر ؟!

أجابه (نور) فى سرعة :

ـ أنا لم أقل إنه لايوجد أى شىء ، ولكن ماقلته هو أنه هناك محاولة لتضخيم الأمر ، أو لإخفائه على نحو ما .

سأله (رمزى) ، وهو يواصل الهبوط خلفه :

ـ أى أمر ؟!

ألقى (نور) نظرة على قاع البئر ، الذى يغمره ضوء مصباحيهما ، وهو يجيب :

ـ هذا ما نسعى لكشفه يا رجل .

قالها ، ثم تحفزت كل ذرة فى كيانه ، مع اقترابهما من القاع ، وبدأ عقله يتوقَّع هجومًا ما ، من شىء ما ، فى أية لحظة ..

لذا ، فقد سرت فى جسده ارتجافة محدودة ، عندما انبعث صوت (سلوى) بغتة ، عبر جهاز الاتصال ، وهى تقول :

- هناك شىء ما يعوق اتصالنا بكم ، من هذا العمق .

سألها فى قلق :

- ماذا تعنين ؟!

أجابته فى توتر شديد :

- آلة التصوير لم تعد تلتقط الصور فى وضوح ، ومن الواضح أنها ستتوقَّف عن البث ، بين لحظة وأخرى ، والأجهزة تسجّل ذبذبة فوق صوتية فائقة من الأعماق ، واقترابكما منها يفسد موجة الاتصال ، و ....

لم يستطع تمييز باقى عبارتها ، مع الشوشرة التى سرت ، عبر جهاز الاتصال ، فغمغم (رمزى) :

- يبدو أن الاتصال قد انقطع بالفعل .

تمتم (نور) :

- يبدو هذا .

كانت تفصله عن القاع ثلاثة أمتار تقريبًا ، فأفلت درجات السلم المعدنى ، وترك جسده يهوى عبر تلك المسافة ، وما إن استقرّت قدماه فى القاع ، حتى رفع مصباحه فى سرعة ، مع فوهة بندقيته الليزرية ..

وانعقد حاجباه فى شدة ..

ومن أعلى ، هتف (رمزى) ، وهو يزيد فى سرعة هبوطه :

- (نور) .. أأنت بخير ؟!

أجابه (نور) :

- نعم .. حتى هذه اللحظة .

رفع مصباحه فى سرعة ، مع فوهة بندقيته الليزرية ..

وثب (رمزى) بدوره ، لتوفير متر كامل من الهبوط ، ورفع فوهة سلاحه وضوء مصباحه أيضًا ، قبل أن يهتف :

ـ ربّاه ! أى مكان هذا ؟!

فعلى ضوء مصباحيهما ، بدت لهما قاعة واسعة ، مجهَّزة بأدوات قديمة نوعًا ما ، تعود إلى بدايات أو منتصف سبعينات القرن العشرين ، مع أحواض زجاجية كبيرة ، تحوى بقايا سائل أزرق اللون ، كان من الواضح أنها امتلأت به يومًا ، منذ عشرات السنين ..

وفى النهاية ، كان هناك معمل طبى علمى متكامل ، مع ثلاجة ضخمة لحفظ العينات ، فتمتم (رمزى) :

ـ عجبًا ! أى أمر كان يحدث هنا ؟!

أجابه (نور) ، وهو يتلفَّت حوله فى حذر :

ـ تجربة علمية .

سأله (رمزى) :

- حول ماذا ؟!

أجابه فى سرعة وحسم :

- حول تطوير أو تخليق نوع جديد من الثعابين على الأرجح .

وأدار ضوء مصباحه فى المكان ، قبل أن يستقر به عند باب معدنى ضخم ، تطلع إليه لحظة ، ثم قال :

هناك مدخل آخر .

تطلّع (رمزى) بدوره إلى ذلك الباب ، قائلاً فى توتر :

- تُرى إلى أين يقود بالضبط ؟!

غمغم (نور) :

- سنعرف .

ثم عاد يدير ضوء مصباحه في المكان ، وهو يتجه نحو وعاء زجاجى كبير ، قائلاً :

- انظر .. إنها بقايا عشرات الثعابين .

تطلّع (رمزى) إلى الوعاء ، مغمغمًا :

- لقد كنت على حق .. إنهم يجرون التجارب على الثعابين .

انعقد حاجبا (نور) ، وهو يوجّه .. ضوء مصباحه إلى ركن القاعة ، قائلاً فى توتر عصبى :

- السؤال هو : أى نوع من الثعابين ؟!

حدّق (رمزى) فى البقعة التى يغمرها ضوء مصباح (نور) ، قبل أن يهتف ، بكل دهشة الدنيا :

- يا إلهى ! إننى لم أقرأ ، فى حياتى كلها عن ثعبان ، يمكن أن يبلغ هذا الحجم !!

ففى ذلك الركن ، كان هناك نصف هيكل سفلى لثعبان ، يبلغ عرضه متر كامل تقريبًا ، وطوله حوالى أربعة أمتار ..

وفى اهتمام حذر ، فحص (نور) ذلك الهيكل السفلى ، قائلاً :

ـ لايمكنني أن أدعى أنني أعرف كل أنواع الثعابين ، فأنواعها تزيد على الألفين وخمسمائة نوع[*] ، ولكنني قرأت يومًا عن ثعبان (البوا) الضخم ، ولست أذكر أنه كان يبلغ نصف هذا الحجم .

قال (رمزى) فى انفعال :

ـ لاحظ أن ما أمامنا مجرَّد هيكل للنصف السفلى فحسب ، وهذا يعنى أن طوله الحقيقى يتجاوز هذا .

التقى حاجبا (نور) ، وهو يقول :

ـ هذا يثير حيرتى وتساؤلى أيضًا ، فلماذا يوجد النصف السفلى للهيكل فحسب ؟! لماذا اختفى النصف العلوى .

تلفَّت (رمزى) حوله ، مغمغمًا :

ـ هناك سبب ما حتمًا .

ثم أضاف فى عصبية :

(*) حقيقة .

ـ ولكن ما نراه هنا يوحى بأن تلك الأشياء ، التى قتلت أفراد البعثة (ت ـ ١٧) ، والتى تهاجمنا هنا ، هى ثعابين بنفس الضخامة .

مطَّ (نور) شفتيه ، قبل أن يقول :

ـ الأمر ليس بهذه البساطة ، فالأجهزة أكَّدت أنها ليست نفس الثعابين التى تعرفها .

أجابه (رمزى) فى حدة :

ـ بالطبع .. إنها ثعابين تم تطويرها هنا .

أدار (نور) ضوء مصباحه فيما حوله مرة أخرى ، وهو يقول :

ـ ولكن لماذا هنا ؟! لماذا لم يتمّ إجراء تلك التجارب فى معامل عادية ، وفى أماكن أكثر إعدادًا ، وأكثر راحة ؟

لم يجد (رمزى) لديه جوابًا لهذا ، فاكتفى بهزّ رأسه ، وهو يفحص المكان بضوء مصباحه ، ثم لم يلبث أن هتف :

ـ (نور) انظر ..

وجّه (نور) ضوء مصباحه إلى حيث أشار (رمزى)، وشاهد كومة من العظام، التى بدت له بشرية تمامًا، وخاصة مع تلك الجمجمة فوقها، فى حين واصل (رمزى) فى انفعال :

- إنها جثث ضحايا تلك الأشياء .

تطلّع (نور) إلى العظام والجمجمة لحظة، ثم قال فى حسم :

- أظنها جثة شخص واحد فحسب .

اتجه مباشرة نحو العظام، فى نفس الوقت الذى انحنى فيه (رمزى) يفحصها فى حذر، قائلاً :

- إنها عظام الذراعين، والكتف، والظهر، والساعدين، والضلوع، وجزء من العمود الفقرى .

اعتدل يتطلّع إليها مرة أخرى، قبل أن يواصل فى حيرة :

- إنه هيكل غير مكتمل .. هيكل للنصف العلوى من رجل بالغ .

ثم تلفّت حوله، مكملاً :

- لابد أن عظام نصفه السفلى فى مكان ما هنا .

التقى حاجبا (نور) فى شدة، وهو يفكّر فى عمق، قبل أن يغمغم :

- ليس بالضرورة .

استدار إليه (رمزى) بحركة حادة، هاتفًا :

- ماذا تعنى ؟!

تطلّع إليه (نور) بضع لحظات، دون أن يجيب، ثم لم يلبث أن قال، فى بطء وحذر شديدين :

- أخشى أن ....

قبل أن يتمّ عبارته، التقط الاثنان، فى آن واحد، تلك الحركة الخافتة، التى حدثت فى مكان ما حولهما ..

وبسرعة، استدارا بفوهتى سلاحيهما، وضوء مصباحيهما، إلى حيث ندت تلك الحركة ..

وشهق (رمزى)، هاتفًا :

- يا إلهى ! (نور) هل ترى هذا ؟!

وانعقد حاجبا (نور) فى شدة ..

فعلى ضوء مصباحيهما، رأيا ذلك الباب المعدنى الكبير .. مفتوحًا ..

وهذا يعنى أن ذلك الشىء الذى يواجهانه، قد أصبح معهما داخل القاعة ..

ويا له من معنى !

★ ★ ★

سرى توتر عنيف فى جسد (مشيرة)، وهى تدلف إلى ذلك المكان، الذى لم يبعث فى نفسها ذرة واحدة من الارتياح ..

وحتى ابتسامة ذلك الرجل، ذى الشارب الكبير، لم تنجح فى إزالة توترها، وهى تقول :

- أخبرونى أنك تجيد ما أطلبه .

أشار إليها الرجل بالجلوس، وهو يقول :

- إنك لم تخبرينى بعد ماذا تطلبين يا سيِّدة (مشيرة) .

قالت فى عصبية :

- إذن فقد تعرَّفتنى ؟!

بدت ابتسامته أكثر سخافة، وهو يجيب :

- من يجهل السيِّدة (مشيرة محفوظ)، أفضل صحفية للفيديو فى العالم ؟!

قالت فى حدة :

- لابأس .. الموقف لايناسب هذا النوع من المجاملات .

رمقها بنظرة لم ترق لها أبدًا، قبل أن يتراجع فى مقعده، متسائلاً :

- ماذا تريدين بالضبط، يا سيِّدة (مشيرة) ؟!

فركت كفيها فى توتر عصبى، وقاومت تلك الرغبة العارمة، فى إفراغ ما بجوفها على وجهه، وهى تجيب :

ـ أخبرونى أنك أحد أشهر المتخصصين ، فى مجال تحضير الأرواح .

تألقت عيناه ، وهو يقول فى حذر :

ـ أحوار صحفى هذا ؟!

أجابته فى ضيق وعصبية :

ـ بل أمر شخصى .

عادت عيناه تتألقان ، وهو يتراجع فى مقعده ، قائلاً :

ـ عظيم .

تضاعفت عصبيتها ، وهو يتأملها طويلاً ، قبل أن يسألها بغتة :

ـ هل تؤمنين بتحضير الأرواح ياسيدة (مشيرة) ؟!

أجابته فى سرعة بالغة :

ـ كلاً .

ارتفع حاجباه فى دهشة بالغة ، واندفع برأسه نحوها ، وهو يهتف :

ـ كلاً ؟!

واصلت بكل عصبيتها :

ـ لست أومن به ، ولم أومن به أبدًا .. بل إننى أعتبره طيلة عمرى مجرَّد دجل وخداع .

ردَّد بدهشة أكثر :

ـ دجل وخداع ؟!

قالت فى حدة :

ـ بالتأكيد ؛ فالروح من أمر اللّه (سبحانه وتعالى) وحده ، ولا أحد يمكنه إحضارها أو استحضارها ، مهما بلغت قدراته .

قال فى حذر :

ـ ولكنه علم ياسيِّدة (مشيرة) .

هزَّت رأسها فى قوة ، قائلة :

ـ علم لايستند إلى أية أدلة مادية .

مطَّ شفتيه ، على نحو يؤكِّد أن حديثها لم يرق له قط ، وعاد يتراجع فى مقعده ، وهو يسألها فى صرامة :

- لماذا أتيت إذن ؟!

لوّحت بيدها ، قائلة :

- ربما لأننى أمر بمحنة سخيفة ، والكاتبة الشهيرة (أجاثا كريستى)(*) لها رأى خاص فى هذا الشأن .

سألها فى ضيق :

- أى رأى هذا ؟!

أجابته فى عصبية ، تحمل نبرة تحد :

- إذا ضعفت النفس ، استسلمت للخرافة .

هتف بدهشة مستنكرة :

- خرافة ؟!

(*) (أجاثا كريستى) (١٨٩١ ـ ١٩٧٦م) : كاتبة إنجليزية شهيرة ، احترفت كتابة القصص البوليسية ، واشتهرت بأسلوبها الشائق ، وقدرتها على جذب القارئ طوال الرواية ، وحتى الصفحات الأخيرة ، ومن أشهر رواياتها (مصرع روجر أكرويد) ١٩٢٦م ، (وجثة فى المكتبة) ١٩٤٢م ، ولها مسرحية ناجحة بعنوان (مصيدة الفئران) ١٩٥٢م .

أجابته فى حدة :

- حاول إقناعى بالعكس .

انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يتطلّع إليها مباشرة ، قبل أن يقول :

- بالتأكيد .

ثم استرخى فى مقعده ، متابعًا فى هدوء واثق عجيب :

- موقفك هذا ليس عجيبًا أو نادرًا ياسيّدة (مشيرة) ؛ فمعظم الناس ترفض تصديق عملية تحضير الأرواح هذه ، ويتعاملون معها باعتبارها خدعة كبيرة ، وأكثرهم تفاؤلاً يقول : إن ما نستحضره قرائن الموتى من الجان ، وليس أرواح الموتى أنفسهم .

غمغمت بعصبية :

- ربما كان هذا أقرب إلى التصديق .

مال نحوها كثيرًا ، وهو يقول :

- سأثبت لك العكس .

انخفض صوتها كثيرًا ، وهى تقول :

ـ أتعشَّم هذا .

تألقت عيناه ، وهو يضع يده على أذنه بحركة مسرحية ، قائلاً :

ـ لم أسمعك جيِّدًا .

تنحنحت فى توتر ، قبل أن ترفع صوتها ، مجيبة فى حدة :

ـ أنا هنا لأرى ما يمكنك فعله .

أومأ برأسه فى ثقة ، وعاد يتراجع فى مقعده ، ويلوِّح بيده ، قائلاً :

ـ تحضير الأرواح علم يا سيِّدة (مشيرة) .. علم يتطوَّر مثل أى علم آخر ، ويستعين فى تطوُّره بتقدم العلوم الأخرى ، والتقنيات المختلفة ، حتى إن ما ستشاهدينه الآن ، لن يتشابه مطلقًا مع الصورة الراسخة فى ذهنك ، عن جلسات تحضير الأرواح .

سألته فى عصبية :

ـ وما الذى سأشاهده ؟!

ضغط زرًّا على سطح مكتبه ، قائلاً بابتسامة واسعة مقيتة :

ـ هذا .

استدارت إلى مصدر ذلك الصوت ، الذى انبعث من خلفها ، ثم انعقد حاجباها فى شدة ، وهى تتطلَّع إلى قاعة كبيرة ، احتشدت فيها عشرات الأجهزة الحديثة ، على نحو لم تشهده من قبل ، فقالت فى عصبية :

ـ ما هذا بالضبط ؟!

أجابها فى شىء من الزهو :

ـ كل ما يلزم ؛ لإجراء جلسة تحضير أرواح ، وفقًا لمقتضيات العصر .

لم تعلِّق على عبارته ، وهى تومئ برأسها فى عصبية ، مما جعله يدرك أن التأثير الذى أراده قد تمكَّن منها ، فابتسم ابتسامة واسعة ، قائلاً :

ـ والآن ياسيِّدة (مشيرة) .. أى روح ترغبين فى تحضيرها .

ازدردت لعابها فى صعوبة بالغة ، وهى تجيب بصوت متحشرج مختنق :

ـ روح زوجى .. (أكرم) .

نطقتها ، وسرت فى جسدها ألف قشعريرة باردة .. كجبال من الثلج ..

* * *

شعور هائل بالعجز ، ذلك الذى ملأ كيان (أكرم) ، وهو يسبح بجسده فى ذلك الفراغ الزمنى ، هاتفًا فى مرارة :

ـ لايمكن أن نسمح بحدوث هذا .. لايمكن أن نتركهم لمصيرهم البشع هذا .

قلب (محمود) كفيه ، قائلاً :

ـ السؤال هو : ما الذى يمكننا فعله ؟!

صاح (أكرم) :

ـ أى شىء ؟!

سأله (محمود) :

ـ مثل ماذا ؟!

عضَّ (أكرم) شفته السفلى فى قهر ، قائلاً :

ـ لابد أن نجد وسيلة ما .. لابد .

تنهَّد (محمود) ، قائلاً :

ـ إننى أبذل قصارى جهدى طوال الوقت .

هزَّ (أكرم) رأسه فى قوة ، محاولاً أن يلقى تلك الصورة البشعة عن ذهنه ، قبل أن يقول ، بكل مرارة الدنيا :

ـ ومتى سيحدث لهم هذا ؟!

أجابه (محمود) فى أسى :

ـ فى المستقبل القريب .

سأله (أكرم) فى عصبية :

ـ وما الذى تعنيه كلمة (القريب) هنا ؟! دقائق أم ساعات أم أيام ؟!

مطّ (محمود) شفتيه ، قائلا :

ـ ليست أيامًا بالتأكيد ، ولكن التحديد الدقيق عسير جدًا هنا ، فما يعرف فى الأرض بالزمن ، أمر لاوجود له فعليًا هنا .

عاد (أكرم) يهزّ رأسه ، قائلاً :

ـ لابد أن نفعل شيئًا يا (محمود) .. لابد .

سأله (محمود) :

ـ ألديك أية اقتراحات ؟!

شعر (أكرم) بمزيج مؤلم ، من الحيرة والعجز والتوتر والضياع ، وهو يعتصر ذهنه ، محاولاً إيجاد وسيلة ما ..

ثم أدرك أن هذا مستحيل !

كيف يمكن أن يجد وسيلة ، للتعامل مع عالم يجهل ماهيته تمامًا ؟!

عالم من الزمن ..

واللا زمن ..

(محمود) نفسه ، الذى احتواه هذا العالم ، منذ زمن طويل ، ليس باستطاعته إيجاد وسيلةً ..

أية وسيلة ..

فكيف يمكن له هو أن يفعل ؟!

كيف ؟!

كيف ؟!

عاوده ذلك الشعور العنيف بالقهر والعجز ، واستعاد ذهنه ذلك المشهد البشع لمصير رفاقه ، فعاد يعضّ شفته السفلى ، حتى كاد يدميها ، قبل أن يقفز خاطر ما إلى ذهنه ولسانه فى آن واحد ، ليهتف :

ـ (س ـ ١٨) .

تطلّع إليه (محمود)، مردّدًا فى دهشة .

- (س - ١٨)(*) ؟!

ثم مال نحوه، يسأله :

- وما شأن - (س - ١٨) بما يحدث هنا ؟!

هتف (أكرم) فى حماسة :

- ربما أمكننا أن نستدعيه بوسيلة ما ..

بدا الأسف على وجه (محمود)، وهو يعتدل، قائلاً :

- كلاً .. لن يمكننا هذا .

همَّ (أكرم) بقول شىء ما، ولكن (محمود) تابع فى سرعة :

- لقد حاولت ألف مرة .

ثم انخفض صوته، واكتسى بالمرارة، وهو يضيف :

- وفشلت .

(*) راجع قصة (المقاتل الأخير) .. المغامرة رقم (٤٧)

شعر (أكرم) بالأمل ينهار فى أعماقه، فتمتم فى خفوت :

- ألا يمكن أن نحاول مرة أخرى ؟!

تنهّد (محمود)، وهو يسأله :

- وكيف ؟! هل سنناديه ؟!

أجابه فى حماسة :

- (نور) فعلها ذات مرة، ونجح فى استدعائه(*) .

ابتسم (محمود) ابتسامة مريرة، وهو يقول :

- ربما ينطبق هذا على العالم الطبيعى .

ثم هزَّ رأسه فى حزم، مضيفًا :

- ولكن ليس هنا .

صاح به (أكرم) فى حدة :

- ومن أدراك ؟!

(*) راجع قصة (ضد الزمن) .. المغامرة رقم (٩١)

ثم ارتفع صوته ، وهو يصرخ :

ـ (س ـ ١٨) .. عد باللّه عليك .. نحن بحاجة إليك .. (نور) بحاجة إليك .

غمغم (محمود) :

ـ لن يفلح هذا .

ولكن (أكرم) تجاهله تمامًا ، وهو يصرخ مرة أخرى :

ـ عد يا (س ـ ١٨) .. عد ..

تطلّع إليه (محمود) فى إشفاق ، وهو يكرّر صرخته مرة تلو أخرى ، ثم لم يلبث أن هزّ رأسه قائلا :

ـ (أكرم) يا صديقى .. عندما تتأزم الأمور ، إما أن يتصرّف المرء بواقعية ، أو ....

قبل أن يتمّ عبارته ، دوت فرقعة مباغتة فى المكان ، وشعر الاثنان وكأن موجة ارتجاجية عنيفة قد أصابتهما ، فهتف (محمود) :

ـ رباه ! هذا لم يحدث أبدًا من قبل .

وانتفض جسد (أكرم) وصوته ، من فرط الانفعال ، وهو يقول :

ـ أمن الممكن أن ...

وقبل أن يتمّ عبارته ، اتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يحدّق فى نقطة ما ، من الفراغ الزمنى المحيط بهما ..

نقطة حدث فيها أمر عجيب .

إلى أقصى حد .

* * *

٨ - نوع من السم ..

«هل تحملين شيئًا يخص زوجك ، يا سيِّدة مشيرة ؟!»

ألقى صاحب الشارب الضخم السؤال فى اهتمام ، وأصابعه تتقافز على أزرار تلك الأجهزة العديدة ، فأشارت (مشيرة) بيدها فى عصبية ، قائلة :

- هأنتذا تتصرَّف كالدجالين القدامى .

انعقد حاجباه فى ضيق ، وهو يقول :

- إنه علم يا سيِّدة (مشيرة) .. علم له قواعده وأصوله ، مثل أى علم آخر .

سألته فى حدة :

- وما صلة هذا بما يخصَّ زوجى ؟!

اعتدل فى مجلسه ؛ ليجيبها فى خشونة :

- لأننا نحتاج إلى بصمته الجينية .

ردَّدت فى دهشة :

- بصمته الجينية ؟!

أجاب فى صرامة :

- نعم يا سيِّدة (مشيرة) .. الأجهزة الحديثة ، المستخدمة فى جلسات تحضير الأرواح ، تحتاج إلى البصمة الجينية ، لصاحب الروح المراد تحضيرها .

قالت فى سخرية عصبية :

- عجبًا ! كنت أظن أن الكيانات غير المادية ، مثل الأرواح ، لا تكون لها أية بصمات جينية ، أو غير جينية .

أجابها فى سرعة :

- بالتأكيد ، ولكن هناك دائمًا خيط خفى ، لا يمكن تفسيره بالأمور العلمية المعروفة ، يربط ما بين الروح ، فى عالمها غير المادى وغير المنظور ، وأى شىء يخص صاحبها ، فى عالمنا المادى المنظور ، ولا يوجد ما هو أقوى من بصمته الجينية ذاتها .

لم تحاول مناقشة منطقه هذه المرة ، وإنما راحت تبحث فى حقيبتها ، فى عصبية شديدة ، عن أى شىء يخصَ زوجها (أكرم) ، قبل أن تقول فى تردُد :

ـ لدى خصلة من شعره ، كنت أحتفظ بها كتذكار ، أو كتميمة حظ .

قالتها ، وهى تخرج الخصلة من حقيبتها ، فالتقط هو شعرة واحدة منها ، قائلاً :

ـ عظيم .. عظيم جدًا .

دفع الشعرة داخل جزء خاص من الجهاز ، الذى تألّقت شاشته ، ثم تراصت عليها فى سرعة كل البيانات ، المستخلصة من البصمة الجينية للشعرة ، فتراجع ذو الشارب الكث فى مقعده ، قائلاً :

ـ الآن يمكننا إجراء الاتصال :

والتقط نفسًا عميقًا ، ومنحها واحدة من ابتساماته المقيتة ، قبل أن يعاود ضغط أزرار جهازه ، قائلاً :

ـ والآن أخبرينى ياسيِّدة (مشيرة) .. متى مات زوجك بالضبط ؟!

ترددت طويلاً ، مما جعله يلتفت إليها ، متسائلاً فى دهشة :

ـ ألا تذكرين تاريخ موته ؟!

أجابته فى عصبية :

ـ بالطبع ؛ لأننى لا أدرى ما إذا كان قد مات ، أم أنه مازال على قيد الحياة .

ارتفع حاجباه فى دهشة بالغة ، قبل أن ينخفضا ، ويلتقيان فى صرامة ، وهو يقول ، فى شىء من الغضب :

ـ أى عبث سخيف هذا ؟!

أجابته فى سرعة وارتباك :

ـ الواقع أن زوجى قد اختفى ، وأنا هنا لأعلم الجواب .

تطلَّع إليها بضع لحظات ، فى غضب هادر ، لم يلبث أن تلاشى تدريجيًا ، قبل أن يقول فى صرامة :

ـ فليكن .. إنها تجربة مفيدة لكلينا على أية حال .

ثم أشار إليها بسبابته ، مضيفًا :

ـ ولكننى سأطلب تأييدًا ومناصرة إعلامية ، لو أقنعك ما سيحدث هنا .

ترددت لحظة ، فى توتر بالغ ، ثم لم تلبث أن قالت :

ـ فليكن .

تألقت عيناه ، وهو يقول :

ـ عظيم .. عظيم .

ثم ضغط زرًا فى جهازه ، مستطردًا :

ـ فلنبدأ فورًا .

انتفض جسدها مع ضغطة الزر ، وانطلق عقلها الملتهب يطرح عشرات التساؤلات ..

تُرى أيمكن أن يكون الرجل على حق ؟!

هل يمكن أن يستحضر روح (أكرم) بالفعل ؟!

هل ؟!

كان الصراع محتدمًا داخلها بمنتهى العنف ، بين رفضها القديم والعنيف ، لفكرة تحضير الأرواح من أساسها ، وبين رغبتها الشديدة الحالية ، فى أن ينجح ذلك الرجل البغيض فى فعل شىء .. أى شىء ؛ ليضىء الطريق أمامها ، ويخبرها سر غياب زوجها الغامض ..

وبأسلوب مسرحى ، رفع ذو الشارب الكث ذراعيه ، وهتف بصوت جهورى عميق خشن :

ـ أيتها الروح الحائرة ، اقتربى ..

ومع هتافه ، راحت أجهزته كلها تعمل على نحو عجيب ، وشعرت (مشيرة) بذبذبة قوية تتردد فى المكان ، ورأت بعض الأجهزة تهتز فى إيقاع منتظم ، على نحو بعث فى نفسها الخوف ، والرجل يواصل هتافه :

ـ هذه بصمتك الجينية تناديك .. أقبلى .. اقتربى .. امتزجى بها .. أعلنى وجودك .

تضاعفت تلك الذبذبة ، حتى أصبحت مؤلمة لأذنيها ،

فى نفس الوقت الذى انتقلت فيه الاهتزازة إلى كل الأجهزة ، وراحت شاشاتها تضىء وتنطفئ فى تتابع مزعج ، وهو يتابع :

ـ أخبرينا أين أنت .. أين كنت ..

واتسعت عينا (مشيرة) فى ذعر ، عندما شاهدت خيطًا من الدخان ، يرتفع من منتصف القاعة ، ثم يتكثف ، ويتزايد ويتضاعف ، قبل أن يتخذ تكوينًا آدميًا ..

ثم تشكَّلت فيه هيئة (أكرم) ..

وبكل انفعالها ، شهقت (مشيرة) ، هاتفة :

ـ أيعنى هذا أنه .. أنه ..

ابتسم كث الشارب فى خبث ، وهو يقول :

ـ لا تتسرَّعى باستنتاجك يا سيِّدتى .. إنه مجرَّد اتصال روحى ، لا يعنى شيئًا بالتحديد .

حدَّقت فى تلك الهيئة أمامها ، وهى تسأل بصوت مرتجف :

ـ وهل يمكنك الاتصال بروح شخص حى ؟!

واتسعت عينا (مشيرة) فى ذعر ، عندما شاهدت خيطًا من الدخان ، يرتفع من منتصف القاعة ..

اتسعت ابتسامته ، وهو يجيب :

- بالتأكيد .

لم يكد ينطق كلمته ، حتى أضيئت الشاشات كلها دفعةً واحدة ، وراحت آلاف البيانات تتراص عليها ، فى سرعة خرافية ، ثم انطلق منها أزيز قوى عنيف ، وراحت الأجهزة كلها تهتزّ فى قوة مخيفة ، فشهقت (مشيرة) فى رعب ، ولكنها فوجئت بصاحب الشارب الكث يصرخ فى رعب :

- ما هذا ؟! يا إلهى ! ما هذا ؟!

حدّقت فيه بدهشة مستنكرة ، هاتفة :

- هل تسألنى ؟!

رأته يتراجع فى رعب ، وجسده كله ينتفض فى قوة ، وهو يتلفّت حوله فزعًا ، فانعقد حاجباها فى شدة ، وهى تهتف :

آه .. إذن فأنت لا تعلم حقًا ماذا يحدث !

ثم انقضت عليه فى غضب ، جعلها تنسى كل ما يحدث من حولها ، وصاحت فى وجهه :

- الآن فهمت اللعبة كلها .. لقد كنت على حق .. كل هذا مجرَّد خزعبلات ودجل .. لقد حصلت على البصمة الجينية لزوجى ، حتى يمكنك الحصول على صورته ، عبر شبكة المعلومات ، واستخدامها لصنع هذه الصورة الهولوجرامية الوهمية .

صاح فى ارتياع ، وهو يحاول التملُّص منها :

- ومن يهتمّ بهذا الآن ؟! ألا ترين ما يحدث حولنا ؟!

كان اهتزاز الأجهزة قد بلغ أوجه ، وراحت شاشاتها تتفجَّر ، واحدة بعد الأخرى ، بدوى هائل عنيف ، وتطايرت قطع الزجاج فى كل مكان ، فانحنت (مشيرة) تحمى وجهها بذراعيها ، وهى تطلق صرخات متصلة ، فى حين راح صاحب الشارب الكث يعدو دون هدى ، وهو يصرخ :

- ماذا يحدث هنا ؟! ماذا يحدث ؟!

ومع آخر حروف كلماته ، دوت فرقعة قوية فى المكان ..

فرقعة تبعتها رائحة أشبه برائحة الأوزون المحترق ..

وانتفض جسد صاحب الشارب الكث بمنتهى العنف ، وعيناه تتسعان حتى آخرهما ..

فما حدث أمامه ، فى تلك القاعة ، وتلك اللحظة ، كان أمرًا خرافيًا ..

ورهيبًا ..

بحق ..

* * *

تألقت عينا الضخم ، وهو يمسح بيده على شعره الأشيب القصير ، ويتطلّع فى جذل وحشى إلى شاشة راصده ، التى نقلت صورة الشبان الثلاثة ، الذين أرسلهم فى تلك المهمة الخاصة ، وهم يغادرون

مطار (القاهرة) ، دون أن يعترضهم أحد ، واتسعت ابتسامته الشرسة ، وهو يقول :

- عظيم .. الهويات الزائفة أتت ثمارها .. لا أحد شك حتى فى أمرهما .

ثم استدار إلى رجل أصلع ، خبيث الملامح ، وأضاف :

- إنه اختبار مدهش للجيل الخامس .

وافقه الأصلع بإيماءة من رأسه ، قائلاً :

- هذا الجيل أقرب إلى الكمال .

انعقد حاجبا الضخم ، وهو يقول فى صرامة :

- أقرب إلى الكمال ؟! كنت أظنه الكمال بعينه .

هزّ الأصلع رأسه ، قائلاً :

- الجيل السادس هو الذى سيبلغ تلك الدرجة .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى حزم :

- لو عثرنا على العينات البشرية المناسبة .

تطلّع إليه الضخم بضعٍ لحظات فى صمت ، قبل أن يتراجع فى مقعده ، قائلا :

ـ عينات بشرية مناسبة ؟! آه .

ثم استدار يفتح برّاده الخاص ، ثم يلتقط من داخله وعاءً زجاجيًا ، حمله بمنتهى الحرص ، وقدّمه للأصلع ، قائلاً :

ـ هذه عينة بشرية مناسبة .

سأله الأصلع ، وهو يلتقط الوعاء بنفس الحرص :

ـ أأنت واثق يا سيّدى ؟!

تراجع الأصلع مرة أخرى فى مقعده ، وتألّقت عيناه على نحو عجيب ، وهو يقول بلهجة عجيبة ، جمعت بين الوحشية والاستمتاع :

ـ تمام الثقة .. إنها عينة لواحد من أبناء دولتنا .. أمه منا ، ووالده من ألد أعدائنا .

هتف الأصلع فى دهشة :

ـ وهل تعتبر هذه عينة مناسبة ؟!

تألّقت عينا الضخم أكثر وأكثر ، وهو يلوّح بيده فى حركة مسرحية رخيصة ، قائلاً :

ـ لن تجد عينة مناسبة أكثر منها ..

ثم تراقصت على شفتيه الوحشيتين ابتسامة ساخرة ، وهو يضيف :

ـ تكفى المفارقة المدهشة .. عينة من نسل عدونا الأوّل ، لتدمير دولته كلها .. يا لها من فكرة .

قالها ، ثم انطلق يضحك ويقهقه ، على نحو جعل الأصلع يتطلّع إليه بمنتهى الدهشة والقلق ، وهو يتساءل فى أعماقه ..

ترُى أهو مختل كسلفه ؟!

وكان الجواب مخيفًا ..

مخيفًا جدًّا ..

* * *

« إنهم هنا .. »

هتف (رمزى) بالكلمة فى رعب ، وهو يحدِّق فى الباب المعدنى المفتوح ، فى حين أدار (نور) ضوء مصباحه فى سرعة ، هاتفًا :

ـ رباه ! أمن الممكن أن ..

قبل أن يكتمل هتافه ، شعر بضربة عنيفة ، تطيح بالمصباح من يده ، وتلقيه فى ركن القاعة ..

ثم انطلق ذلك الفحيح ..

فحيح قوى ..

عنيف ..

مخيف ..

وقريب ..

قريب جدًا ..

ومع صوت الفحيح ، تناثر سائل عجيب على خوذته ، ليحجب عنه الرؤية تمامًا ..

وبحركة غريزية ، وثب (نور) جانبًا ، وهو يهتف :

ـ احترس يا (رمزى) .

رفع (رمزى) فوهة بندقيته الليزرية ، وراح يطلق أشعتها عشوائيًا ، وهو يصرخ ..

ويصرخ ..

ويصرخ ..

ودوت انفجارات محدودة ، مع ارتطام خيوط الأشعة بالجدران ، و ..

وأتت الضربة عنيفة هذه المرة ..

عنيفة أكثر مما ينبغى ..

جسم ضخم ارتطم بصدره ، وانتزعه من مكانه ، ليلقيه عبر القاعة ، حيث ارتطم ببعض الأجهزة ، قبل أن يصطدم بالجدار ، ويسقط أرضًا فى عنف ، وهو يسعل ويلهث فى شدة ..

وفى سرعة ، راح (نور) يمسح ذلك السائل ، الذى غمر خوذته ، وهو يهتف فى عصبية :

- (رمزى) .. أأنت بخير ؟!

سعل (رمزى) مرة أخرى ، وهو يهتف فى ألم متهالك .

- إنهم هنا .. إنهم هنا .

هتف (نور) ، وهو يرفع فوهة سلاحه :

- لقد نفثوا فى وجهى نوعًا من السم ، ولولا الخوذة لقضيت نحبى حتمًا .

قال (رمزى) فى مرارة :

- ولكنهم هنا .

ثم أضاف فى يأس :

- ونحن لا نراهم .

مع قوله ، انبعث ذلك الفحيح مرة أخرى ، وبدا قريبًا على نحو مخيف ، فقال (نور) فى صرامة :

- ربما لا نراهم الآن .

ثم أدار فوهة سلاحه نحو السقف ، هاتفًا :

- ولكننا سنراهم بعد لحظة واحدة .

انطلقت أشعة الليزر من سلاحه ، وأصابت سقف القاعة ، الذى توهَّج بكتلة من النيران ، لمح (نور) معها ذيل ثعبان ضخم ، يزحف بسرعة ، خلف أحد الأوعية الضخمة ، فاتسعت عيناه لضخامته ، وهو يهتف :

- يا إلهى ! يا إلهى !

ولكن الوهج لم يستغرق سوى ثوان معدودة ، حاول (نور) استغلالها بأفضل وسيلة ممكنة ، فوثب بكل قوته ، ليلتقط مصباحه اليدوى من الركن ، ثم أداره إلى حيث يزحف ذلك الثعبان ، و ....

وغمر الضوء المكان كله ..

غمره فى نفس اللحظة ، التى برز فيها ذلك الشىء ، من خلف الوعاء الضخم .. واتسعت عينـا (رمزى) عن آخرهمـا ، واحتبسـت صرخـة قويـة فـى حلقـه ، وانتفض جسده كما لم ينتفض من قبل ..

أمـا (نـور) ، فقـد احتبسـت أنفاسـه مـن هـول الموقف ، وهو يحدّق فى ذلك الكائن أمامه ..

الكائن الذى لم يكن ثعبانًا ..

بل كان شيئًا آخر ..

شيئًا رهيبًا ..

للغاية ..

* * *

انتهى الجزء الأوّل بحمد الله

ويليه الجزء الثانى بإذن الله

(أنيـاب)